

# نظرات فی آر نورک توینبی

دکتور السید امین شلبي



دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع  
عمارة  
القاهرة  
مصر

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/السيد أمين شليبي

القاهرة

نظرات فی آرنولد توینبئی



# نظرات في آرنوك توينبى

الدكتور  
السيد أمين شلبى

٢٠٠٠م

الناشر  
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)  
عمده غريب

الكتاب : نظرات فى أرنولد توينبى

المؤلف : د. السيد أمين شلبى

رقم الإيداع : ٩٩/١٧٢٥٩

ISBN : الترقيم الدولى

977-303-218-3

تاريخ النشر : ٢٠٠٠م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (مبدعه غريب)

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ٦

٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس / ٢٤٧٤٠٣٨

التوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

٥٩١٧٥٣٢ / ☐ : ١٢٢ (الفجالة)

المطابع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ☐

رئيس مجلس الإدارة / أحمد غريب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





## "كتاب عشته" بقلم دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أراد كاتبه السفير الدكتور السيد أمين شلبي أن أكتب له مقدمة، والمقدمات عادة تكون موجزة، ولكن الكتاب كان حشدا من الموضوعات الهامة والفاصلة. ولم أملك إلا أن أقرأه حرفا حرفا وما وراء الحروف فطالت المقدمة حتى غدت دراسة للكتاب فرضها مستواه الرفيع ... كان الكتاب بدوره سفيرا بين الشرق والغرب.

ما أغلى الكتاب الذى يضيف ويخلق ويطوف داني القطوف، إنه يطيل العمر بالعرض وليس العمر بالطول إلا إذا كان الطول مشغولا بهدف كبير ... هنا يكون الطول رتبة.

إذا كان العمر منسوجا بفن أو بعلم خيطا خيطا فإنه فى هذه الحالة رتبة إلهية دونها بكثير عروض الدنيا.

العطاء الفنى أو العلمى حياة بعد الحياة... حين تذهب الزيوف، أرقى ما يكون الفن أو العلم حين يتصل بالدين وينبع منه ويؤمن به إيماننا خالصا عميقا فتضىء الروح لأن الدين يرش النور على خطاها فتزوى أكلها ثمرا مختلفا ألوانه وتكون كشجرة الليمون تحمل فى آن ولحد الورق والزهر والثمر.

أتحدث عن كتاب "ظلمات فى آرنولد توينبى" الذى كتبه السفير الدكتور السيد أمين شلبي، الذى عاش فى مصر.. أقصد عاش آمالها وعاش أعماقها ... عاش قضايها .. ثم عاش فى خارجها فطوف وطاف .. وإليها عاد بعد طول الغياب ليكتب تجارب العمر ألوانا من الكتب.

كتب سفيرنا عن الدبلوماسية المعاصرة، نظرية وممارسة، وعن حياة وفكر أعلامها.

وكتب باحثا عن علاقات القوى والنظام الدولى لفترة الحرب الباردة وما بعدها.

سفر لمصر ومثلها فى قارات ونظم مختلفة، وحاضر فى الجامعات والأكاديميات، كتب موسوعى يخلق فى الأفق ويمنح من الأعماق ويعطى فى

صمت وسمت العلماء والسفراء وأيضاً الحكماء، وما أعذب الكتابة حين يبلغ الصمت أعلى ذراه.

والمصريون يحبون توينبى لأنه أنصف مصر حضارة وشعباً وعطاء.

المصريون يحبون توينبى لأنه أحد القلائل الذين خلت نفوسهم من العقد ... ذلك أنه عرف الدين، آمن بضرورة الدين للإنسان ودعا قومه من الغربيين إلى العودة إلى واحة الدين بعد أن لفحهم الهجير ولم تغن عنهم التكنولوجيا شيئاً بكل إنجازاتها، غرتهم وأغرتهم بالتسلط والاستعلاء والاعتداء فإذا بهم يقتلون أنفسهم قبل الآخرين حين أشعلوا حربين عالميتين فى ربع قرن ضاع فيها الملايين من أبنائهم حين صنع الدين من الصحراء دولة وثقافة وحضارة تغبأت ظلها أوروبا نفسها فى الأندلس...

حضارة لم تضن، ولم تمن، ولم تطلق على الذين استقوا منها وتعلموا عليها، (العالم الثالث).

حضارة لم تعرف ترفيم الشعوب وهى التى اخترعت علم الجبر (٧٥٠ - ٨٥٠) ويعرف باسمه العربى فى جميع اللغات ومن اسم مخترعه (محمد بن موسى الخوارزمى اشتق المصطلح المعروف.

"الجوثر" الذى يستخدم بكثرة فى التحليلات العددية. وقد وضع أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى (٨٠١ - ٨٧٠) أسس الرياضيات الحديثة.

ومع هذا لم يرقموا الشعوب.

أما الحضارة المصرية فهى عشق توينبى حتى احتج عليه قوم من الانجليز:

- لقد كتبت عن مصر ستة أضعاف ما كتبت عن انجلترا ... فقال :

- آسف. لقد كان من حق مصر أن أكتب عنها ستين ضعفاً بحق الحضارة

المصرية على الإنسان فى كل مكان.

أكثر! أن يحب المصريون توينبى؟ إن النفس تحب الإنصاف وتشرف إلى

العدل وتهوى النزاهة وتهفو إلى التقدير... ولم يضن به، صادقاً، توينبى.

إن أبرز ما يميز توينبى فى هذا الكتاب إيمانه العميق بالله وتعلقه الشديد بالدين.. ورأيه السديد فى فلسفة الحضارات والمقارنات التى يعقدها بين الحضارة الغربية المزدهقة بالتكنولوجيا والحضارات التى وقف وراءها الدين سلاما على الأرض وسلاما فى الروح.

لقد واجه توينبى الحضارة الغربية وحللها وحاسبها حسابا عسيرا مما عرضه لحملة من النقد العنيف إلى الحد الذى وصفوه بأنه ييغى زوالها ! كيف وهو ينتسب إليها ؟! اليس انجليزيا؟

لقد أسف لاعتدائها على الشعور ونهبها وانتحال إنجازاتها الحضارية والعلمية ثم التعالى عليها بعد هذا !!! بدلا من التعايش معها كما يقول السفير فى علاقة متكافئة.

اقول ماذا لو تعايشت معها فى علاقة ودود شاكرة ذاكرة أنها سبقتها إلى الحضارة، وأعطتها فى عصور مختلفة.. فإن لم يكن هناك شكر الذاكر أو اللاحق للسابق فعلى الأقل، من باب التمسب للمستقبل.. فإذا كانت السيطرة الغربية اليوم قامت على أساس من الزهو بالتقدم المادى والعلمى فإن الحظوظ والمصائر يمكن أن تتغير حين تمتلك هذه الشعوب الوسائل نفسها.. ولذلك يرى توينبى أن من مصلحة الغرب أن يصحح هذه العلاقة اليوم قبل أن يضطر إلى تصحيحها وهو فى موقف ضعيف.

إن العدل "سمة دينية" يأمر بها الله .. ومن هنا ينعى توينبى على الغربيين - وهو غريب ولكنه منصف - ابتعادهم بل استبعادهم "الدين" فى اعتداد بالذهن وحده فاجدبت الروح.

إنه لا يتجاهل بالطبع ميراث الحرية الفكرية الذى خلقته الثورة العلمية وحركة التنوير، ولكنه حاول أن يصوغ تألفا بين العقل والدين يلائم متطلبات القرن العشرين.

إن أزمة الحضارة الغربية أنهم آمنوا بوجهة نظر "جيبون" بأن ما وقع لروما لا يمكن أن يحدث لأوربا لأن الغرب حقق تقدما كبيرا فى المعرفة والصناعة فخلل إليهم أن الأمراض التى حطمت الحضارات لن تصيبهم ونسوا أن الليبرالية

والذاتية الممعة في المكاسب الشخصية لا تستطيع أن تحافظ على الحرية الفردية وأنها لن تكون بديلة عن الدين والقيم الروحية التي بدونها يشقى الإنسان (ما أغنى عنه ماله وما كسب).

ومع هذا يقول توينبى "بينما تكون الدول ذات أعمال قصيرة وموت مفاجيء فإن حضارة مثل الحضارة الغربية قد تبقى قرونا بعد أن تكون المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد اختفت من الخريطة السياسية للعالم".

وقد توقف السفير الدكتور السيد أمين شلبي في كتابه عند ما لاحظته توينبى من حقائق تهز... منها حجم الفقر في العالم حتى أمريكا دولة القطب الجديد ١٠/١ وربما ٥/١ السكان فيها مازالوا فقراء بشكل تعيس لا يلقون الرعاية ومازالت البلدان التي يتمتع سكانها، أو جزء منهم، بالثراء أقلية، ومازال ثلاثة أرباع العالم تتكون من فلاحين، ومازال مستوى معيشتهم المادية ليس أعلى كثيرا من مستوى العصر الحجري!!

"توينبى" في القرن العشرين يهيب بنا أن نخطط المدن بشكل يجعل أحياءها مقتصرة على نفسها، بحيث يمكن أن يذهبوا إلى المدرسة ويجعل الأمهات والزوجات يتسوقن دون أن يخطرن بعبور طريق ملوء بالمركبات الآلية.

ألا بذكركم هذا بالقاهرة القديمة؟

لقد كان أهلنا يتمتعون ببعد النظر.

ومن الحقائق التي ساقها "توينبى" في كتاباته أن بعض الفرنسيين اشتكى من نظام دييجول احتكار الحكومة للتليفزيون الذي يجعلهم يرون ما يريد دييجول أن يروه وأنهم بذلك يُجربون من وسائل رؤية الحقائق وأن يقرأوا بأنفسهم ما يريدون فعله ومشاهدته.

ويقول "توينبى" إن التقدم التكنولوجي وأدواته ساهمت في تمكين الحكومات والمؤسسات من تجميع كمية ضخمة ودقيقة من المعلومات حول نشاطات وحياة الفرد ووجهات نظره، الأمر الذي أصبح يشكل تهديدا غير مسبوق لحرية الأفراد.

وليس توينبى وحده الذي يقول هذا. فهذه المشكلة فجرها سنة ١٩٥٦

● كتاب "كولن ويلسون" Colin Wilson " اللانتمى " The Outsider أقول  
والغريب نفسيا حين يبحث، كما يقول "جوركي" فى مقدمة (الشريد) عن مكان  
مريح فلا يجده، يحز الالم فى نفسه ويتلاشى هذا الإنسان ومن هنا ظهرت  
المذاهب العبيثة واللامعقول.

لقد تساءل "توينبى" عقب الحرب العالمية الأولى ببشاعتها :

● (كيف يتحدث المرء عن حرمة الفرد وقد أصبحت أوربا مقبرة .. وقد سمحت  
أوربا للمذابح أن تكون سنوت ... كيف استخدم "المتحضرين" مواهبهم وقدراتهم  
التنظيمية لذبح الملايين فى حروب لا معنى لها ولا عقل فيها؟

● لقد تصدع الوهم الذى عشت عليه بأنى مواطن محظوظ فى عالم مستقر لقد  
كنت وإهما.

● لقد كانت دراسى للتاريخ استجابة للتحدى الذى وجهه لى إجرام الحرب الذى لا  
مفسر له.

أقول ولكن أوربا لم تخل فاخترعت بعد الحرب العالمية الأولى، القنابل  
للذرية فلم يملك "توينبى" إلا أن صاح :

(يجب أن أتحوّل الى الزوج فى أواسط إفريقيا لإنقاذنا من الميراث الحالى  
للإنسانية، طالما أنهم وفقا لما يقوله علماء الأجناس عندنا يملكون مفهوما نقيًا ونبيلا  
عن الله وعن علاقة الإنسان به).

وتساوّل "توينبى" بالنقد "الشيوعية" واعتبرها مذهباً "مرعباً" أساء إلى  
خصائص الطبيعة البشرية وشوه ما كان نضالاً مشروعاً من أجل العدالة  
الاجتماعية كما نقد "القومية" واعتبرها استغلت الصناعة وقت نشأتها مع أن  
الصناعة عالمية فى روحها فهى التى تعمل بحرية وبشكل مفيد ولكن نشأة الصناعة  
فى الغرب وسط عالم مفكك من الوحدات السياسية وقت ظهورها جعل كل دولة  
تنشد مصالحها الاقتصادية على حساب البشرية.

والنتيجة أن الصناعة "تولدت" كالقومية وانتمت انتماءً خاصاً حسب  
كل دولة.

حتى في حالات السلم فقد العامل الصناعي الصلة التي كانت بينه وبين العمل الذي يؤديه وكان يحبه ويفخر بتجويده.. افتقد الحرية التي حلت الرتابة محلها ولهذا يخلق المعانير للأجازات أو الاستجمام ليس من التعب ولكن من الشعور بالكآبة وكان العمل قديما استجماما في ذاته بما يضيفه من تحقيق الذات.

نحن لا نستطيع أن نوقف عجلة الزمن ومنطق الأحداث فإن الزيادة السكانية في العالم أو في مناطق واسعة "منه" تؤدي إلى المجاعات إذا عدنا إلى الأساليب اليدوية فلا بد من الميكنة لتفطية حاجة للجموع. معنى هذا أن المشكلة التي نجمت عن التكنولوجيا قائمة وستظل .. إن ميزة التكنولوجيا هي أفقتها.

ويضرب "توينبي" المثال الياباني وموقفه من الغرب وتكنولوجياه، فقد تملك اليابانيون التكنولوجيا الغربية وسيطروا عليها دون أن يتخلوا عن تقاليدهم الروحية.

إن تقاليد الأمم للعريقة جزء من كرامتها.

وحين يكون غول التكنولوجيا الغربية أكثر خطرا كما يقول توينبي من الزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات والفيروسات، فإن التقدم التكنولوجي يكون قد تحول إلى مصائب اجتماعية واستخدمت أكثر الأساليب العلمية لارتكاب أسوأ المذابح التي عرفها التاريخ.

إن الذين تبهرهم للتكنولوجيا ليس معناها الاتساق والتناسق مع الحضارة فقد تكون الحضارة في حالة اضمحلال على الرغم من اجازاتها التكنولوجية.

إن الدين والفن هما اللذان يضيفان الإنسانية على الإنسان وبيئته... ولهذا يدعو توينبي إلى تحويل الطاقة العقلية إليهما ليقدما للإنسانية الأمل في البقاء.

أقول إن الغنى المادى "عبء" ... ولكن الغنى للروحي "جناح".

من المشكلات التي شغلت توينبي مشكلة أوقات الفراغ التي خلقتها للتكنولوجيا... وهذا الفراغ الكبير يقضيه إنسان العصر بطريقة هابطة، كمتفرج سلبى أمام التلفزيون والأحداث الرياضية، التي خلقت لامتناسل الناس وشغلهم عن التفكير في أشياء وأشياء... ولهذا يجب أن يقوم النظام التعليمي الذى يشجع على النمو الجمالى الثقافى وتنمية الطاقات الروحية.

أترى الشياطين تبسم الآن ... ولكننا لا نبالس ...

ومن المشكلات التى نؤرق "توينبى" الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى العالم ويرى الحل فى تضيقها من خلال دولة عالمية قوية بما فيه الكفاية لكى تفرض الضرائب على الأمم الغنية لفائدة ومصلحة الأمم الأفقر كما حث الأمم الفقيرة على تشكيل اتحاد بينها شبيه باتحاد نقابات العمال بحيث ترفض بشكل جماعى بيع عملها ومواردها الأولية للبلدان الحوتية (نسبة إلى الحوت) إلا وفق شروط عادلة وتجبرها على تغيير شروط التجارة لصالحها.

هل كان "توينبى" يتنبأ بغول الجاث والشركات متعددة الجنسية والنظام العالمى الأوحده لصالح الأغنياء والأقرباء؟

وحيث يخلط الغرب الأوراق يقول توينبى (ليس الغرب الذى تعرض للضرب والإيذاء من العالم.. إنه العالم الذى خرب وأودى من الغرب ويضرب الأمثلة فالروس لا يفسون أن بلادهم تعرضت للغزو من الجيوش الغربية فى الأعوام: ١٦١٠ - ١٧٠٩ - ١٨١٢ - ١٩١٥ - ١٩٤١.

كما تذكر إفريقيا وآسيا البعثات التبشيرية الغربية والتجار والجنود الذين جاءوا من وراء البحار، وتدفقوا منذ القرن الخامس عشر كما تذكر الذين احتلوا الأراضي التى سميت أمريكا والذين احتلوا استراليا ونيوزيلندا.. ويذكر الأقارعة أنهم قد استبعدوا ورحلوا ترحيلاً عن الأطلنطى من أجل خدم المستعمرين الأوروبيين للأمريكتين ثم اجتثوا لإتاحة المكان وتوسيعه للمتطفلين.

### سخائم وجرائم تحت السطح وتعمل فى الأعماق

وهكذا فى عصر الشترزم الفكرى والثقافى، يتناول "توينبى"، التاريخ حقائق ومعنى شاملاً... ومع هذا لم يسلم من النقد فهو فى عين ناقدية أنصف الإسلام، وأدان الغرب، ورأى فى لليهود رأياً مفاداه أو موداه :

● أن اليهودية هى خيرة من الحفريات.

● أن التعصب الأعمى هو فى جوهره لاختراع يهودى قدم للمسيحية والإسلام... وقد تعرضت المسيحية للخيانة واتهم الإسلام بالإرهاب.

● أن الصراع العربى الإسرائيلى، كارثة كبرى.

● أن السقوط الأخلاقي لليهودى يفوق (الخصيص الأخلاقي للنازى).

ولهذا رفض توينبى أن يزور إسرائيل وأن يحاضر فيها... ومع هذا لا يعتبر اللاجئين اليهود، مسئولين عما حدث لفلسطين ولكن للزعماء الصهانية هم المسئولون عن ذلك... وكذلك الحكومت البريطانية الأمريكية.

إن إسرائيل فى نظره، حالة أخرى من حالات العدوان الغربى ضد الشرق كم جاء من الغرب آخرون ليفتصبوا بالقوة أرض روديسيا، والكنفو، والجزائر.

كما تألم توينبى حين شبه ابنه، من باب التهئية، اليهود بأنهم ربما كانوا كالفرقى بتعلقون بالمجداف.. فصاح فيه، توينبى، إنهم يتعلقون به، ويدفعون أصحاب المجداف الشرعيين من فوقه.. وهذا هو ما فعله اليهود حين سرقوا من العرب أراضيهم ثم أعملوا فيهم قتلا ونجحا جماعيا.

أما رأى توينبى فى أمريكا فقد بذاه على المعايير التى يحددون بها قيمهم.. وفى رأيه أن (جعل حجم الاستهلاك هو معيار الحياة، فهو شيء مقيت حقاً وتزييف أكيد للقيم الحقيقية كما أبدى "توينبى" قلقه من الاتجاهات الأمريكية، ومما يمكن أن يفعلوه تجاه القضايا البشرية كما عبر توينبى عن انزعاجه مما يلმسه من ولع الأمريكيين بالقتال، وتذكر زيارة له للبنتاجون وكيف تملكه شعور بالرعب حين زار وزير الحرب الأمريكى فى مكتبه حيث وجد على كل الموائد والكراسى وفى كل مكان نماذج للصواريخ، وكان الوزير يشعر بالسعادة بها مثل طفل يحيط نفسه بالعباءة).

هذا جزء من نقد "توينبى" للآخرين.

لما نقد الآخرين كتابه الحافل فأعنف هؤلاء أو من أشدهم عنفا الأستاذ سوركيم Pitrim Sorkim فى دراسة عنواتها "للمسفة للتاريخ عند توينبى" .  
Toynbee Philosophy of History

ولا يقل عنه عنفا المؤرخ تريفوا H.R. Trevolt Roper الذى اتهمه بأنه يعادى العقل وماعادى توينبى غير الجنون والغرور وطالب بترشيد العقل واحترام الدين ليرد غوائل الزهو للكاذب الأجوف.



إلا أن مؤرخاً بارزاً مثل William MCNeill ينصفه ويلمس قلقه على الغرب وما حل به في القرن العشرين كما حمد له حياده العلمي وتقييمه العادل، حضارات الإنسان الكبرى في غير إجحاف أو إجحاف.

إن الذين انتقدوه لم يقرّبوا نقاط رئيسية :

● ما قولهم في القنابل الذرية والنووية؟ لماذا ضربت بها اليابان بعد انتهاء الحرب ولم تضرب ألمانيا المسئول الأول عن الحرب؟ نحن نستذكر ضرب أي شعب بالقنابل الذرية.

● هل هي مسألة شرق وغرب ؟

● هل هو التعصب الذي أدانته توينبي فلم يُعجب؟

● ما قولهم في اعتداءات الغرب على الشرق التي فصلها توينبي؟

● ما قولهم في اغتصاب اليهود فلسطين وما سبقه وما لحقه من نكبات؟

نعود إلى المؤرخ ألف مرة أخرى.

كان منجزاً ويكاد يكون معجزاً، إذا قسنا عطاءه العلمي بعمر الإنسان.. كان دقيقاً حساساً إلى حد القلق حتى في أمور الحياة اليومية.. كان يصل إلى محطة القطار ٤٠ دقيقة قبل مواعده ... ولم يكن لينتظر حين يصل القطار إلى المحطة فكان توينبي يضع بنفسه حقائبه مبدئاً جهذاً عضلياً وهو بحاجة إلى الراحة التي تعينه على العمل الذهني الموصول.

وكان قلقاً أكثر فيما يتصل بكتاباته، ولكنه للقلق الذي جعله عبداً لعمله وفي المقابل جعله حراً لكي يكون سيد نفسه في توجيه دراساته واهتماماته الفكرية.

### لماذا اختار التاريخ، والتاريخ؟

يفسر توينبي ذلك بأنه مؤرخ لأن أمه كذلك، ومع ذلك لم يكن يتبع ميل أمه للتاريخ.. ولعل هذا الإحساس بشخصيته جعله ينحو منحى آخر في دراسة التاريخ فقد أحببت أمه الحقائق التاريخية المحددة لغاية أبعد إذ يرى فيها مفاتيح لفهم الطبيعة، واكتناه أسرار العالم.. ولهذا لم يكن تتاوله الأحداث سرّداً بل تحليلاً واستشفافاً واستقصاء ونفاذاً ورأيًا ناقداً وعلامة طريق.

علمته المدرسة وعلمته القراءة المتصلة.. وعلمه السفر والارتحال...  
وعلمته التجربة وعلمته الحياة الخصبية بالعمل، حتى أهدى بدوره خمس نصائح لمن  
يشغل بالكتابة والتأليف.. أول نصيحة ذهبية قدمها له أستاذه الأول بالمدرسة  
الإعدادية وهو يعتبره أفضل مدرس تلقى عليه.

هذه النصيحة الذهبية (لا تتدفع بتهور وفكر قبل أن تتصرف واعط نفسك وقتاً  
لكى ترى موضوعك أو مشكلتك ككل).

والنصيحة الثانية : التى يهديها توينبى هذه المرة، هى أن يتصرف المرء فى  
الحال ما دام يشعر أن فكره قد نضج وأصبح جاهزاً للتصرف... ذلك أن الانتظار  
والترقب كثيراً، قد يكون أكثر سلبية فى آثاره من الإنففاع والتهور.

والنصيحة الثالثة : هى أن يكتب الكاتب بشكل منتظم وفى أى وقت من اليوم  
تشعر أنك تكتب فيه بشكل أفضل.

والنصيحة الرابعة : ألا يفقد الكاتب فترات متفرقة من الوقت حتى  
لا تفتر همته.

والنصيحة الخامسة : لنظر دائماً إلى الأمام كما ينظر المتسابق بالسيارة نحو  
الأفق الذى سوف يبلغه.

ويرى توينبى أن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أهداف ثلاثة:

أن يحب - أن يفهم - أن يكون خلاقاً بضيف.

ويرجع السفير الدكتور السيد أمين شلبى، هذه النظرة الرحبة فى دراسة  
التاريخ إلى تعليم توينبى تعليماً كلاسيكياً شمل: الأدب ، والفن ، والفلسفة ،  
والسياسة ، والتاريخ.

ليس كموضوعات منعزلة وإنما كوجوه متعددة لنظرة متميزة إلى العالم.

أقول بدورى:

مثل هذا التعليم يصنع الإنسان.

ويصنع النماذج الرفيعة.

لبيتنا نستوعب الدلالات والإشارات والمرامى البعيدة التى تقف وراء إعداد الأجيال.

وهكذا أبحر الصغير الدكتور السيد أمين شلبي فى عالم توينبى الفكرى وحل وأوفى .. إن ما عرضته من كتابه القيم لمحات فحسب .. رؤوس موضوعات أترك بعدها القارئ فى الكتاب يقرأ ثم يعيد .. ويفكر ويستزيد على مهل ... ويقينى أنه سيقبل عليه مرات يشرب منه عللاً بعد نهل.

وحسب الكاتب والكاتب أن كليهما أدى وأوفى

د. نعمات أحمد فؤاد



## تقديم

ربما لم يزل مشتغل بالتاريخ فى العصر الحديث من الشهرة والمكانة العالمية مثلما نال المؤرخ البريطانى آرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) وقد أصبح اسم توينبى مألوفاً للمتتبع المصرى والعربى بوجه خاص لموقفه المنصف من القضية الفلسطينية، ورويته للوجود الصهيونى فى فلسطين باعتباره اغتصاباً لأراضى الغير، وامتناداً للإمبريالية والظلم ضد الشرق، غير أن الشهرة الدولية العريضة التى اكتسبها توينبى قد ارتبطت بعمله الضخم: "دراسة للتاريخ" Study of History والذي كتبه على مدى عشرين عاماً ١٩٣٤ - ١٩٥٤.

ولم تكن المكانة التى اكتسبها توينبى بعد إنجازه لهذا العمل نتيجة لمستواه الكمى فحسب حيث صدر فى إثنتى عشر جزءاً ، وإنما لنطاق الدراسة العريضة والمنهج الذى اتبعه مما جعلها أكثر المجالات طموحاً، وبشكل لم يجرؤ عليه مؤرخ قبله. فعلى عكس غيره من المؤرخين الذين اكتفى حتى أفضلهم بإلقاء نظرة جزئية على التاريخ البشرى وحصرها أنفسهم فى فروع تخصصهم، كان توينبى هو الذى قدم نظرة رحية وبانورامية للتاريخ، ومفهوماً شاملاً يغطى الوجود للبشرى منذ بداية الحضارات التى سجلها التاريخ. ومثل هذه النظرة الشاملة للتاريخ هى التى جعلته يتحدى تركز المؤرخين الغربيين حول تراثهم واعتبارهم أنهم حضارتهم الغربية إنما يقفون موقفاً متميزاً يحتكرون فيه للتاريخ وكان التاريخ قد توقف تماماً عند عالمهم الغربى، لذلك اعتُبر أن مساهمة توينبى الأساسية فى تقاليد المعرفة هو رويته للتاريخ البشرى من منظور أوسع، وتذكيره لأبناء حضارته بالحقيقة البسيطة أن الآسيويين، والإفريقيين بل وشعوباً مثل الهنود الحمر والأسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الغرب.

كذلك كان من إسهامات توينبى الأساسية فى دراسته للتاريخ، أنه لم يكن يتتبع تاريخ العالم وحضاراته المتعاقبة لمجرد السرد التاريخى، وإنما للخروج بنظرية حول القوانين التى حكمت هذه الحضارات ومراحل نشوئها، ونموها ثم بدء انهيارها وتفككها وفنائها. وهذا التحليل للحضارات هو الذى قاده إلى أن يلقى سؤاله الجوهرى حول وضع الحضارة الغربية المعاصرة ومستقبلها ، وتسأله عما إذا

كان مصير الحضارات التي اندثرت سوف ينطبق عليها، وهو السؤال الذى وضع توينبى به الغرب أمام مآزقه الحضارى والفلسفى، وضاعف توينبى من وقعه حين رآه ينبع من نفس ما اعتبره الغرب إنجازا لتاريخى وهو التقدم العلمى والتكنولوجى والتقاليد الليبرالية والعقلية التى أرساها عصر التنوير وذهب بها الغرب إلى أبعاد انتهت إلى إعلاء شأن القيم المادية وفصلته عن القيم الأخلاقية والروحية وصنعت هذا الفراغ الروحى الذى تعيشه الحضارة الغربية المعاصرة.

وقد ادى مواجهة توينبى للحضارة الغربية بمآزقها هذا إلى الكثير من سوء الفهم حول دوافعه الامر الذى تعرض معه لنقد عنيف من جانب بعض المؤرخين الغربيين الذين ذهبوا إلى أن توينبى فى أعماقه ولكى يثبت ويحقق نظريته بoud أن يرى الحضارة الغربية وقد تهدمت ، كما رأوا فيه عدواً لكل ما يمثله الغرب من قيم العقل والحرية وما أنتجته من تقدم.

وبالواقع أن تحليل توينبى لواقع الحضارة الغربية والأخطار التى تهددها وللتأثيرات السلبية التى صاحبت تقدمها المادى والعلمى، لم يكن انتقاداً للعلم وتطبيقاته، حيث كان يعتبره قوة فعالة فى التطور البشرى، أما ما كان ينبه له فهو أن هذه القوة ليس وراءها القوة الروحية والفهم الخبير الذى يوجهها ويستخدمها الاستخدام السليم، الأمر الذى نشأ معه هذا الاختلال فى العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان فى المجتمع الغربى، كما أدى إلى المفارقة الصارخة حيث إن تقدم العلم والتكنولوجيا لم يزد من سعادة الإنسان حتى فى أكثر مجتمعات الغرب تقدماً حيث بقيت أقسام واسعة منه فى حالة فقر مادى كما ظلت أقسام كبيرة من المجتمع البشرى تعيش فى ظروف العصر الحجرى. كذلك لم يكن انتقال توينبى للمذهب العقلى انتقاداً من قيمة للعقل حيث كان يؤكد أن الحياة البشرية فى مجموعها هى فى النهاية صراع من أجل إعلاء شأن العقل، أما ما كان يعنيه فهو الحاجة إلى إدراك حدود العقل البشرى وقصوره عن تفسير جميع حقائق الوجود والطبيعة البشرية، ومن ثم الحاجة إلى استكمال هذا النقص بالرؤية والخبرة الحسية.

كذلك لم يكن توينبى كما أراد نقاده أن يصفوه عدواً للحضارة الغربية حين انتقد وعارض توسعها الإمبريالى واضطهادها للشعوب ، بل إنه اعتبر نفسه فى

هذا مدافعا عن الحضارة التي ينتمى إليها وعن مستقبلها الذي رأى أنه يجب أن يقوم على أساس علاقة طبيعية متكافئة مع غيرها من الشعوب والحضارات وأنه إذا كانت السيطرة الغربية قد قامت على أساس من التقدم المادى والعلمى فإن الحظوظ والمصائر يمكن أن تتغير حين تمتلك هذه الشعوب هذه الوسائل ، ولذلك فإنه من مصلحة الغرب أن يصحح هذه العلاقة اليوم قبل أن يضطر إلى تصحيحها وهو فى موقف ضعيف.

غير أنه إذا كانت سمعة توينبى العالمية قد ارتبطت أساسا بعمله الضخم عن دراسة التاريخ ونظريته فى الحضارات ومراحلها ، فإن جانباً آخر من نشاط توينبى الثقافى والفكرى قد لا يقل حجما وتكرسا عن دراسته للتاريخ، فقد عكف منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٤٢ على تحرير التقرير الدولى السنوى للشئون الدولية المعاصرة والذي عرف بـ : Survey of International Affairs

(وقد خصص الجزء الذى صدر عام ١٩٢٧ للعالم الإسلامى تحت عنوان :

#### The Islamic World since the peace settlement

أما الحقبة الأخيرة من حياته فقد ارتبط واشتغل فيها بشكل أكثر بقضايا البشرية ومجتمعاتها المعاصرة مثل قضايا الديمقراطية والتعليم والحروب والبيئة ومدى استجابة البشرية للتحديات التى تواجهها مثل الانفجار السكالى أو التلوث، وتضائل الموارد الطبيعية ومشكلات التقدم العلمى ومواءمة توزيع الثروة العالمية، وهى القضايا التى تصبح اليوم أكثر وأكثر على قمة جدول أعمال اهتمامات البشرية وتعتمد - مثلما ظل توينبى يؤكد - على وحدة للبشرية فى التعامل مع هذه القضايا.

الفصول التالية هى نظرات فى آرنولد توينبى : فى مصارده ومكوناته الفكرية والثقافية، والعيون التى استخدمها للعثور على مبادئه التى سبى من خلالها حضارات العالم وكتب منها دراسته للتاريخ، فى رؤيته لأهمية دراسة التاريخ والخبرة التى تقدمها دراسته فى النظر إلى الحاضر وصناعة المستقبل ولمدى قيمة هذه الخبرة، وفى مجال دراسته للتاريخية والمنهج الذى اتبعه فى هذه الدراسة، وفى تتبعه للحضارات القديمة والمعاصرة وتصنيفه لها وفيما يعنيه أساسا بالحضارة،

ومراحل تطورها والقوانين التي تحكمها ، وفي رؤيته الدينية كأساس لرؤيته التاريخية، وفي رؤيته وتحليله للحضارة الغربية المعاصرة ومآزقها الذي تواجهه باتساع الفجوة بين التقدم المادي والعقلي والتراجع الروحي والأخلاقي، في علاقة الغرب بالعالم والحضارات والثقافات الأخرى كالإسلام وحضارات الشرق الأقصى في اليابان والصين والهند، ثم في تفكيره وتأمله في القضايا التي تواجه البشرية والإنسان المعاصر، وأخيراً في ألوان النقد التي وجهت إليه وإلى دراسته للتاريخ، وفي مكانته في التاريخ الثقافي وكيف سينظر إليه ويُقيمه مؤرخو المستقبل.

وبعد،

فأرجو أن أكون بهذه النظرات قد وفقت في إعادة قراءة وتقديم هذا المؤرخ الفذ الذي كرس حياته وعمله للبحث وإعادة بناء الحقيقة التاريخية في شمولها للبشرى وفي الدفاع عن القيم الروحية والأخلاقية كأساس لأي جهد بشري حقيقي وفي التركيز على القيم المشتركة بين الديانات التي تطو بها على أية التقاسمات عرقية أو ثقافية ، وفي تذكيره لأبناء حضارته بأخطائهم نحو أنفسهم ونحو العالم.

د. السيد أمين شلبي



## مداخل

### لماذا يعمل ؟ وكيف ؟

بداية ما الذى كان ينفغ ويحفز توينبى على العمل والنشاط الفكرى؟ يجيب على ذلك بقوله إنه حين كان طفلاً فى المدرسة كان الدافع الرئيسى الذى يعيه هو القلق، فقد كان فى قلق دائم لكى يكون سباقاً فى أن يتعرف ويدرك معانى صفحات من اليونانية أو اللاتينية والتي سوف يطلب منه شرحها وتفسيرها فى الفصل . وقد ظل هذا القلق ملازماً له طوال حياته حتى فى التلهف والحسرة على أن يصل مبكراً للحاق بالقطارات أو الطائرات. ورغم ما كان يمثل هذا القلق والتلهف من دافع على التحقيق والإنجاز إلا أن توينبى يرى أن له مساوئه من حيث إنه يستهلك الطاقة العصبية التى كان يمكن أن تستخدم بشكل إيجابى أكثر، كما كانت رغبته فى إنجاز الأمور قبل موعدها تفرض عليه أعباء إضافية، فحين كان يصل إلى محطة القطار ٤٠ دقيقة قبل موعده، فإن من يحمل له حقائبه لم يكن لينتظر حتى يصل القطار على المحطة وعلى هذا فقد كان عليه أن يضع حقائبه بنفسه فى القطار حين يصل. ويستدعى فى هذا الواقعة حدثت فى حياته المدرسية حين دعى أن يشرح بعض الفقرات الصعبة من الأدب اليونانى وكان قد أعدها بعناية إلا أنه فعل هذا قبل المناقشة بعدة أسابيع ، وحين حل موعد المناقشة كانت معاليها واستيعابها لها قد ضعف، ولو لم يكن أستاذه يعلم أسلوبه فى العمل لكان قد ظن أنه لم يودى واجبه، ولكن لحسن الحظ استنتج الحقيقة وهى أن توينبى قد أعد واجبه منذ فترة طويلة قبل الموعد المطلوب. وهكذا يعتبر توينبى أن القلق والتلهف على الإنجاز لم يكن يوماً عادة طيبة فى ذاتها وإنما يمكن أن يكون ضاراً إذا ما بلغ حداً من التطرف، غير أن القلق ظل عدة قوة دافعة قوية يمكن أن تلط على جوانبها السلبية.

أما الدافع الثانى لتوينبى فى العمل فقد كان دائماً هو الضمير، ويعتقد أن الضمير المتزمت ربما كان جزءاً من الميراث الاجتماعى لعائلة والده، الأمر الذى جعل العمل باستمرار ويكل طاقته هو نتاج ما يمل به عليه الضمير كواجب. وكلا من الضمير والقلق يمثلان عنده زوجان قويان من القوة الدافعة، وهما إذا كانا يضمنان للمرء أن يعمل بشكل شاق إلا أنهما لا يؤكدان أن هذا العمل يمكن أن

يكون في شيء يستحق. إنهما قوى عمياء تدفع ولكنها لا توجه غير أن من حسن حظ توينبي أنه إلى جانب القلق والضمير، كانت تدفعه أيضا قوة ثالثة ألا وهي الرغبة في أن يرى ويفهم. غير أنه لم يشعر بهذا الدافع إلا بعد أن أصبح على وعى بالدافعين الآخرين، وإن كان يظن أنه قبل أن يدرك هذا للدافع الثالث فلا بد أنه كان يحركه منذ المراحل الأولى من حياته والرغبة في أن يرى وأن يفهم أو بمعنى آخر الشغف وحب الاستطلاع. والذي يعتبره توينبي أحد الخصائص المميزة للطبيعة البشرية على نقيض طبائع الحيوانات والكائنات غير البشرية. وعنده أن كل الكائنات البشرية تمتلك حب الاستطلاع بدرجة ما إلا أنها تبدو قوية عند البعض أكثر منها عند البعض الآخر، وهذه هي إحدى النقاط التي تختلف فيها الكائنات البشرية عن بعضها البعض بشكل ملحوظ. أما توينبي فهو يعتبر أن شحنة حب الاستطلاع التي وهبها له الله كانت عالية ويعبر عن امتلاكه القلبى لله على هذه الملحة.

ويشير توينبي للترابط بين دوافعه الثلاثة وكيف أن كلا منها كانت تخدم الأخرى فيذكر أن القلق الذي كان يدفعه وهو في المدرسة لأن يعد عمله وواجبه المدرسي قبل موعده كان له أثره في تحديد وقته وتمكينه من أن يتابع ويحقق شغفه بحب الاستطلاع وإشباعه بإنجازه لدروسه قبل موعدها بوقت طويل كان يتيح له وقتا كافيا لكي يشغل نفسه بما يحب أن يعمل وبما يشبع حب استطلاع في اهتمامات أخرى خارج للنطاق المدرسي، هذا في الوقت الذي كان فيه لقرانه مشغولين بواجبهم المدرسي حتى اللحظة الأخيرة ويركز توينبي على عبارة "ما أحب" والتي تعني عنده "ما اخترت" وما هبأ نفسه لعمله، وهكذا كان القلق الذي جعله عبداً لعمله، جعله أيضاً حراً لكي يكون سيد نفسه في توجيه دراساته واهتماماته الفكرية.

ويطرح توينبي سؤالا هاما حول دراسته للتاريخ ويتساءل: لماذا أنفق حياته في دراسته؟! ويجيب بأن ذلك كان للمتعة : for fun ويفسر ما يعنيه بعبارة fun بأنها طريقة أخرى لأن يقول إنه درس التاريخ لأنه كان الطريق الذي يستطيع عبره وبأفضل وجه إقامة علاقة حميمة مع الواقع النهائي وبذلك يصبح أكثر الأهداف جدية ويعتقد توينبي أن إجابته تلك تتصف بالأمانة وأنه إذا ما ظل السائل يسأل عما

إذا كان ذلك سيكون اختياره إذا علنت حياته من جديد، فإن إجابته ستكون إن هذا كان ما سيفعله ويقول هذا بالقتاع.

ولكن لماذا دراسة التاريخ بوجه خاص؟ ويجب توينبى بأن حب الاستطلاع هو عادة ملتزمة وأن ثمة عددا لا يحصى من الأشياء فى العالم، بجانب التاريخ، التى يمكن أن تثير حب الاستطلاع فى الكائنات البشرية وتثيره بالفعل، فلماذا انصب حب الاستطلاع عنده على التاريخ؟ ويفسر توينبى ذلك بأنه مؤرخ لأن أمه كانت كذلك وأنه لا يتذكر وقتا لم يأخذ فيه كقضية مسلمة أنه سوف يتبع أمه للتاريخ ودراسته غير أنه رغم أن أمه هى التى ألهمته أن يصبح مؤرخا إلا أن ذلك يبقى فى معناه العلم فقط، فقد أحبت أمه الحقائق التاريخية المحددة لذاتها وقد أحب هو هذه الحقائق التاريخية كذلك لطبيعة الحال، ذلك أنه إن لم يحبها الإنسان فإنه لا يمكن أن يصبح مؤرخا، فالحقائق هى المخزون الذى يعمل به ويعتمد عليه المؤرخ. غير أن حب توينبى لحقائق التاريخ لم يكن من أجل ذاتها، فهو يحبها من أجل أمور أبعد منها إذ يرى فيها مفاتيح لفهم الطبيعة والاهتداء إلى معنى لغموض العالم وسره، هذا الغموض والسر الذى يشعر به كل كائن بشرى منذ أن يستيقظ وعيه، فنحن نريد أن نفهم الكون ومكاننا فيه، ونحن نعلم أن فهمنا له لن يكون كاملا ولن يتعدى فكرة غامضة، غير أن هذا لا يجب أن يثبط من عزيمتنا عن أن ننشد أكثر مما نستطيع أن نحصل عليه من الضوء.

ومتلما لقي توينبى الضوء على دوافعه إلى للعمل والنشاط الفكرى وعلى أسباب حبه واشتغاله بالتاريخ، فإنه يشرح أسلوبه ومنهجه فى العمل والدراسة منذ أيامه الأولى فى التعليم، ويستخلص من تجربته العريضة والعميقة فى الدراسة والعمل والكتابة نصائح يقدمها للمشتغلين بالحياة الثقافية بوجه عام.

يقول توينبى إنه ما بين عشرة، وعشرين من عمره كان فى استعداد دائم للامتحانات المتتابعة، وقد كان الاستعداد لهذه الامتحانات ذو طابع تعليمى بعدة طرق فهو يجعل الإنسان مسئولا عن أن يهيئ نفسه للعمل، ورغم أن مدرسا قادرا ومتعطافا يستطيع أن يساعد التلميذ على التعلم إلا أنه لا يستطيع أن يقوم بذلك نيابة عنه. ويتذكر توينبى أن أستاذه فى المدرسة الإعدادية كان أفضل مدرس حصل عليه فقد علمه كيف يعمل ورغم أنه أترك منذ البداية أنه كان مدرسا غير عادى إلا

أن امتثاله قد تزايد بشكل مستمر حيث وجد نصيحته مفيدة في التعامل مع قضية فكرية بعد أخرى. وكانت أول وأفضل نصيحة قدمها لتوينبي هي أن لا يجعل شيئاً يصيبه بالذعر كأن يدرك مثلاً أن الوقت المتاح للإجابة محدود، ونصحته له بأن لا يندفع بالإجابة دون تفكير سابق إذ أن أفضل وقت ينفقه من الساعات الثلاث هو الذي يوجهه للتفكير قبل أن يشرع في الإجابة، وقد علمه أستاذه هذا أن يحاول دائماً توضيح أفكاره وأن يحرص على أن يرى الغلبة دون أن يفقد نفسه بين أشجارها وأن يبدأ من المعلوم إلى المجهول.

ويُفسر توينبي الأسس التي التزم بها في عمله وسعيه للحصول على المعرفة وكيف تطورت هذه العملية فيقول إنه قد رفض - وما زال يرفض - أن يضع حدوداً على حصوله على المعرفة بأن يحصرها داخل حقل محدد وبشكل تحكيمي وأنه استطاع أن يهتدي إلى طريقة أفضل لوضع حدود لما لا حدود له. فمرور الزمن أصبح العمل بالنسبة له هو الكتابة أو الاستعداد للكتابة، كما لم يعد يعنى القراءة فقط. وقد خصص للكتابة الساعات ما بين الإفطار والغذاء - وهو الوقت الذي يشعر أن عقله يكون فيه أكثر نشاطاً. كما ترك قراءته لكي تعطى بنفسها وقد برهن هذا المنهج على نجاحه بالنتائج التي حققها وقرأ ما احتاج إلى قراءته لاستخدامه في كتاباته ونجح في قراءة قدر كبير مما كان ضرورياً وهو يهيب نفسه لعمل تالٍ. وهذا الأسلوب هو الذي جعله يكتب أكثر مما حلم به.

وفي إعطائه الأولوية للكتابة فقد تخطى عن الحصول على مزيد من المعرفة في حقل اللغات، ولكنه ركز على حقل آخر للمعرفة وهو المعرفة المباشرة بالبيئات المختلفة والتي كان دائماً شغوفاً بأن يضيفها إلى حصيلته المعرفية. وقد كان في جوع إلى السفر نتيجة للافتقار إلى الوقت والمال، ولكنه منذ عام ١٩١١ فقد سافر إلى الحد والمدى الذي استطاعه، وبحيث أصبح السفر هو النشاط الذي أعطاه أسبقية على الكتابة. فقد كان على الكتابة أن تنتظر حين تلوح فرصة للسفر ذو فائدة ثقافية. وقد كان وراء هذا الاتجاه اعتقاد توينبي أنه لمن يدرس الشؤون البشرية فين السفر يجب أن يجيء قبل أي شيء، فالسفر والمجتمعات البشرية لا يمكن أن تفهم بشكل منعزل عن بيئاتهم، وبيئاتهم الجغرافية لا يمكن فهمها بشكل غير مباشر وقد يتوفر الإنسان لعدة سنوات للقراءة عن بلد ما والنظر في خرائطه دون أن يحصل

على فكرة صادقة عن طابعه، إلا أن لمحة واحدة للطبيعة بعين الإنسان يمكن أن تقدم له المعلومات الجوهرية التي فشلت المصادر الثانوية في تقديمها.

فما هي النصائح التي يقدمها توينبي من خلال تجربته للمستغلين بالحياة الثقافية، يقول توينبي إن لديه خمس نصائح لهم، أولها هي تلك النصيحة الذهبية التي قدمها له أستاذه الأول وهي: لا تتدفع بنهور، وفكر قبل أن تتصرف، واعط نفسك وقتاً لكي ترى موضوعك أو مشكلتك ككل. والنصيحة الثانية هي أن يتصرف المرء في الحال مادام يشعر أن فكره قد نضج وأصبح جاهزاً للتصرف، ذلك أن الانتظار والترقب كثيراً قد يكون أكثر سلبية في آثاره من الاندفاع والنهور. ونصيحة توينبي الثالثة لا يوجهها لمن يشتغلون بالكتابة التاريخية فقط وإنما في كل حقل من حقول الكتابة والمعرفة وهي أن يكتب بشكل منظم وفي أي وقت من اليوم تشعر إنك تكتب فيه بشكل أفضل ولكن لا تنتظر حتى تشعر أنك في حالة مزاجية جيدة، فعليك أن تكتب سواء كنت في حالة مزاجية جيدة أم لا . وفي هذا يقول توينبي عن تجربته الخاصة بالالتزام بمنهج العمل المنظم هذا " كيف أنجزت جدول أعمالي الخاص؟ لائي قد ألزمت نفسي بأن أكتب كل يوم سواء كنت في حالة مزاجية جيدة أم لا ، ولأني أبدأ منذ الساعة صباحاً كل يوم " . ويقول توينبي أن ما تكتبه حين لا تكون في حالة مزاجية سيئة لن يكون جيداً بطبيعة الحال مثل الذي تكتبه حين تشعر أنك في أحسن أحوالك، ولن تشعر بالرضا مع أول صورة له ولكن هذا يمكن تعديله وتطويره وحتى هذا قد لا يتحقق بالصورة التي ترتضيها كما يمكن أن تحقق إذا ما كتبتها بحماس، ورغم هذا فربما تجيء الفرصة ونفسي بالغرض المطلوب في الوقت الذي تكون قد حققت فيه تقنماً ما نحو الإنهاء من مشروعك أما إذا أنتظرت حتى تحقق الكمال فربما انتظرت حتى بقاء حياتك العاملة ذلك أن لا شيء أنجزته الأبدى أو العقول البشرية قد بلغ حد الكمال، فإذا كان ثمة أعمال كاملة كثيرة فإنها من عمل الله لا الإنسان ، وإذا ما افترض الإنسان الفاني أنه يستطيع أن يحقق الكمال فإنه يكون قد ارتكب خطيئة الكبرياء والشعور بالفخر الذي يسبق عادة السقوط.

وتصيحة توينبي الرابعة للمستغلين بالشئون الثقافية والفكرية هي أن لا يفقد فترات متفرقة من الوقت، وأن لا يقول لنفسه ها قد أنجزت هذا العمل، وأن العمل

التالى لا يستحق البدء فيه قبل صباح الغد أو خلال نهاية الأسبوع، وعلى هذا فنؤجل هذا اليوم أو بقية هذا الأسبوع فإنه يمكن أن أسترخى وأخذ الأمور ببساطة والحقيقة أنه ربما لم يفعل هذا، ذلك أن اللحظة الصحيحة لكى يبدأ الإنسان عمله التالى ليست غدا أو الأسبوع للقدام، إنما هى فى الحال وتاماً مثل التعبير الأمريكى Right now وإنه لمن الدلالة أن يكون هذا تعبيراً أمريكياً ذلك أن الأمريكيين هم أكثر الناس فعلاً وإنجازاً.

أما نصيحة توينبى الخامسة فهى : انظر دائماً إلى الأمام مثلما ينظر للمتنساق بالسيارة من خلال نظرائه البعيدة نحو الأفق الذى سوف يبلغه قبل أن يعرفه.

غير أن خبرات وتجارب توينبى بطبيعة الحال لا تقتصر على دوافعه وحوافزه إلى العمل والنشاط الفكرى أو أسلوبه ومنهجه فى الدراسة والتحصيل العلمى فلم تكن هذه إلا مقدمات لخبراته الأوسع حول قضايا تاريخية وفلسفية وتلك المتصلة بالإنسان والمجتمع البشرى وبشكل خاص المعضلات الوجودية والعملية التى يولجها نتيجة لتقدمه للمادى والتكنولوجيا، لذلك نجد توينبى يتساءل بداية عن هدف أو أهداف الإنسان من الحياة؟ ومن أجل أى شىء يعيش الإنسان، وعن العوائق والعقبات التى تعترض تحقيق هدف الإنسان من الحياة وما هو الثمن الذى يدفعه من أجل ذلك؟ وموقف نرى أن توينبى يرى هذه العوائق أساساً فى اختلال العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان، وأن هذا الاختلال يجرى أساساً لتزايد الثروة المادية وللتقدم العلمى وتطبيقاته التكنولوجية وسيطرتها على بيئة الإنسان وعبودية الإنسان لها، وهى العملية التى لفقد الإنسان خلالها سعادته بل وربما إنسانيته وقربت البشرية من الخطر. هذا التصور للوضع البشرى هو الذى يجعل توينبى يستخلص أن أهم ما يجب أن يشغل البشرية اليوم ليس هو المزيد من التقدم العلمى فلديها منه ما فيه الكفاية، وإنما تقليل للفجوة الأخلاقية وجعلها أقل اتساعاً مما هى عليه اليوم. ويناقش توينبى اتصالاً بذلك دور الدين فى دعم الجانب الروحى فى الإنسان وتحقيق التوازن المفقود مع الجانب المادى، ذلك أن العلم والتكنولوجيا لا تستطيع أن تقدم بدائل للدين الذى لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه، أو أن يعيش بدون عقيدة. ويؤكد توينبى على إعلاء الجانب الروحى

فى تخليص الإنسان من أنانيته وفرديته، التى يعتبر أنها تمثل المشكلة الأساسية لدى الإنسان والمجتمع البشرى المعاصر.

فما هو الهدف من الحياة وما الذى يجب أن يعيش من أجله الإنسان؟ يجب توينبى أن حالة التشوش والاختلاط والقلق والضغطو ولتقييدات والتغيرات السريعة فى الحياة المعاصرة لها نتائجها فى العالم كله، ولكنها أكثر وقعا وأكثر تأثيرا على الشباب. فالشباب يريد أن يجد طريقه، وأن يفهم معنى الحياة وأن يتعامل مع الظروف التى يواجهها بقوة واندفاع، غير أنه إذا كان السؤال حول ما الذى يجب أن يعيش من أجله الإنسان يطرح نفسه بشكل خاص بالنسبة للشباب إلا أنه يحوم فوق الإنسان فى كل مرحلة من مراحل الحياة.

ويحدد توينبى أن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أهداف ثلاث : أن يحب، وأن يفهم وأن يكون خلاقا وفى سعيه لتحقيق هذه الأهداف الثلاث فإن الإنسان يجب أن يبذل كل قدراته وطاقته بل أن يضحي بنفسه إذا ما اقتضت الضرورة ذلك وإذا رأى أى شيء له قيمته يستحق التضحية من أجله، وسوف يكون الإنسان مستعداً لتقديم هذه التضحية إذا شعر بقيمة وجدارة ما يضحي من أجله.

ويعتقد توينبى أن الحب له قيمة مطلقة وأنه هو الذى يعطى قيمة للحياة البشرية، وكذلك حياة أنواع أخرى من الحيوانات الثديية والطيور. وكل أنواع الحب عند توينبى هى رغبة ولكن هناك نوعين من الرغبة فهناك الرغبة التى تأخذ الإنسان بعيدا عن نفسه وتجعله يقدم نفسه للآخرين وللعالم وللوجود الروحى الذى يكمن فيما وراء الكون. أما النوع الآخر من الرغبة فهى التى تحاول أن تستغل الكون وأن تجذبه نحو المخلوق نفسه وتستخدمه لأهدافه فكلما النوعين رغبة ولكن كلا منهما نقيض الآخر، ومن هنا فإن توينبى يقرر بوضوح أن نوع الحب الذى يعنيه هو النوع الأول من الرغبة، وأنه يتحدث عن هذا النوع من الحياة حين يتحدث عما يجب أن يعيش من أجله الإنسان.

وإذا كان توينبى يقول إن الإنسان يجب أن يعيش من أجل أن يحب فإنه لا يعتقد أن الحب يجب أن يكون هو المطلب الأول والوحيد للإنسان، بل إن ثمة قيمة أخرى يجب أن يعيش من أجلها وفى مقمتها الفهم understanding ذلك أن

الإنسان - بين المخلوقات الحية على هذا الكوكب - يبدو فريداً في امتلاك الوعي والعقل، ولذلك فلهذه القدرة على اختيارات إبداعية، ونحن نحتاج أن نستخدم هذه القدرات البشرية الخاصة لتوجيهها إلى الوجهة الصحيحة، غير أنه من الصعوبة أن نحدد أى أهداف نعطيها الأولوية، وهذا ما يجعل الوعي للناس عن التفكير الرشيد مطلوباً في هذه العملية. ولذلك يعتقد توينبى أن استخدام وتنمية وتطوير عقلنا البشرى هو أكثر الأمور أهمية، ذلك أن طبيعتنا البشرية تتميز بالرشد في جانب صغير جداً منها ، فنحن البشر مثل المخلوقات غير البشرية محكومون جزئياً بالعواطف والدوافع غير الواعية، وعقلنا البشرى إنما يقع على سطح الروح، أما ما تحتها من أعماق للوعي الباطن، فلا يمكن سبر غورها. وقد تكون دوافعنا التى تصدر عن الوعي الباطن، خيرة أو شريرة، ونحتاج أن نأتى بها إلى منطقة الوعي حتى يمكن بقدر ما نستطيع أن ننظر إليها عن قرب من أجل أن نرى ما إذا كانت خيرة أو سيئة حتى نختار ونتبع الطيب وأن ننذ السيئ، وهنا مرة أخرى نحتاج إلى أن نبقى عقلنا ووعينا دائماً في حالة يقظة وعمل، فحياة الكائن البشرى هى نضال مستمر بين الجانب العاقل والجانب غير العاقل فى الطبيعة البشرية، ونحن نحاول دائماً أن ننتزع جانباً أكبر من طبيعتنا ونبقيه للعقل على حساب العاطفة العمياء، غير أننا فى هذه المحاولة غالباً ما نخسر وعندئذ يتفوق الجانب غير العاقل على الجانب العاقل منا، وفيما يعتقد توينبى أن الحياة البشرية فى مجموعها هى صراع من أجل إعلاء شأن العقل.

أما الهدف الثالث الذى يجب أن نعيش من أجله فهو أن نكون خلاقين، فما الذى يعنيه توينبى بأن يكون الإنسان خلاقاً؟ Creative يعنى بذلك محاولة تغيير هذا العالم من أجل أن نجد أنفسنا فى وضع نحاول أن نضيف إليه أشياء طيبة إذا ما أمكن ذلك. إن الكون وفى الحالة التى نجدها عليه حين يبدأ إدراكنا ووعينا به هو بالتأكيد فى حالة غير كاملة وغير مرضية، وحيث تفتقر العديد من المخلوقات الحية بعضها البعض هذا إذا أضفنا الزلازل والفيضانات والتلوث والعواصف التى يمكن أن تكمر مئات الآلاف من الأرواح وتكمر عمل الإنسان، الأمر الذى يلحق مظاهر عدم الكمال فى الكون. كل هذا يجب أن يدفعنا إلى أن نناضل من أجل أن نضيف إلى الكون وأن نكمل البيئة الطبيعية وأن نستبدلها جزئياً ببيئة من صنع الإنسان.



غير أن توينبى لم يكن ليتصور أن سعى الإنسان لتحقيقه لأهدافه فى الحياة لن يكون بلا معوقات أو عقبات، كما أنه لابد أن يكون هناك ثمن يدفعه ويتحملة وهو يحاول تحقيقها فما هى هذه العقبات وما هو الثمن الذى يدفعه الإنسان وهو يحاول مواجهتها؟

يقول توينبى أنه إذا كان يرى أهمية محاولة استكمال الإنسان للبيئة الطبيعية بيئة من صنعه فقد كان ذلك على حساب أنه أصبح عبدا لهذه البيئة المصطنعة والتي صنعها بنفسه، ومثل هذه البيئة الجديدة هى أكثر استبداد وإثارة للاضطراب النفسى من البيئة القديمة، وهذا التحول هو أحد أسباب عدم الاستقرار والصراع والعنف الذى يسود فى الوقت الحاضر وكذلك الإحباطات المتبادلة للإرادات البشرية. ويعتبر توينبى أن من بين البيئات التى يراها، تُقدّم اليابان أبرز الأمثلة على هذا التحول من البيئة الطبيعية إلى البيئة التى صنعها الإنسان وآثارها، وأن ما يحدث فى اليابان يعطى صورة عن ما سوف يجرى على نطاق عالمى. غير أن توينبى يعتبر أن العالم قد اختبر فى تاريخه مثل هذه التحولات الثورية، وأن البشرية قد استطاعت أن تستوعب وأن تتغلب من قبل على هذه التغيرات التى حدثت بمثل هذه السرعة وهذه الحدة، وهو ما يمثل مصدر عزائنا وأملنا فى أزمة العالم المعاصرة.

ويعتبر توينبى أن أكثر المظاهر التى تثير الدهشة فى التغيرات الثورية فى عصرنا هى الزيادة فى الثورة المادية التى تحققت أساسا نتيجة لتطبيقات العلم أى التكنولوجيا. فى هذا فإن التكنولوجيا المخططة علميا كانت ناجحة بما يفوق التوقع، إلا أن المفارقة فى هذا أن ذلك النجاح لم يزد من سعادة الإنسان. حقيقة أنه منذ بداية المدنية لم يتم توزيع الثروة توزيعا متساويا، إلا أن عدم المساواة هذه لم يتم التغلب عليها حتى بعد تحقق الثورة الصناعية والوفرة المادية التى نتجت عنها ، واليوم تقف الولايات المتحدة كأكفَى دولة بين الدول الصناعية بمستوى حجم إنتاجها، ولكن حتى فى هذه الدولة فإن ٠,١ وربما ٠,٥ السكان مازالوا فقراء بشكل تعيس ولا يلقون الرعاية، ومازالت البلدان التى يتمتع سكانها أو جزء منهم بالغنى، وأما زال ثلاثة أرباع سكان العالم تتكون من فلاحين ومزارع بمستوى معيشتهم المادى ليس أعلى كثيرا من مستوى العصر الحجري.

ويضيف توينبي إلى مظاهر المفارقة بين ما تحقق من ثروة مادية وبين عائد هذه الثروة فيما يتعلق بسعادة الإنسان الحقيقية، فيقول إن الأقلية من الجنس البشرى التى أصبحت اليوم غنية قد اشترت ثروتها بثمن عالٍ من وجهة نظر افتقاد الحرية وافتقاد السعادة، فالعائد فى عصر ما قبل التاريخ كان أكثر حرية مما خلفه فلاح العصر الحجرى.. ولكن الفلاح على الأقل مازال يجد متعة فى عمله فهو يحب محصوله وحيواناته المنزلية، والصانع اليدوى بالمعنى الحرفى من صنع الأشياء بيده وليس بالآلة، يجد السرور أيضا فى عمله ويفتخر به وبأدائه بشكل جيد . ولكن العامل الصناعى فى مدنية اليوم، وكذلك من يقوم بعمل مكتبى، هو أقل حرية من سلفه حيث يشعر بالرتابة فى عمله، وافتقاده للشعور بأنه يؤدي شيئا خلافا، ولذلك فهو يلجأ إلى الاستجمام ويبالغ فى ذلك. والاستجمام هذا عبارة فى غاية الأهمية، والتى تعنى أن للعمل بمعناه المعاصر يقلل من الجانب الخلاق فى العامل، ويجعله أقل إنسانية أو يجرده من إنسانيته، وإذا فهو يحتاج أن يستخمد وقته بعد انتهاء عمله لجعل نفسه إنسانا مرة أخرى، وقبل الثورة الصناعية كان العمل نفسه استجماما وتجديدا، الأمر الذى لم يكن العامل يحتاج معه إلى الاستجمام فى وقت فراغه.

ووجه الحرج والصعوبة أمام الإنسان المعاصر وهو يواجه هذه المفارقة ، أنه حتى لو حاول أن يحرر نفسه من ضغوط التقدم العلمى والتكنولوجى الذى حققه، فسوف يعجز عن ذلك لسبب بسيط وهو أنه أصبح سجيناً لهذا التقدم، فالزيادة السكانية التى تحدث فى العالم أو فى مناطق واسعة منه قد تودى إلى المجاعات، إذا ما حاولنا أن نعود إلى الأساليب القديمة فى العمل والإنتاج والتى وإن كانت أقل كفاءة إلا أنها كانت أكثر مجلبة للرضى والسرور الروحى. كما أنه بالنظر إلى الانفجار السكانى لن نستطيع أن نهرب من حياة المدن أو العمل المكتبى أو عمل المصنع الذى حكما به على أنفسنا بالثورة الصناعية، الأمر الذى يحتم علينا أن نقبل نمط حياة المدن الذى قررناه لأنفسنا ، ولكن ما يجب ويمكن أن نفعله هو أن نحاول أن نجعل هذا المصير محتملا بقدر ما نستطيع، فنحن لا نستطيع أن نوقف حياة المدينة ولا نستطيع أن نمنعها ولكن ربما نستطيع أن نجعلها أكثر إنسانية. إن المدن يجب أن تُخطط بشكل يجعل أحياءها مقتصرة على نفسها وبشكل يجعل من الممكن على الأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة والزوجات والأمهات أن يتسوقن دون

أن يخاطرن بعبور طريق مملوء بالمركبات الآلية.

ويعتقد توينبي أن العالم في عصرنا إنما يجرى تجريده من إنسانيته وبشكل يجلب الأسى والحزن، ولذلك فنحن في حاجة لأن نضفى أو بالأحرى نعيد الإنسانية لتعاليمنا الأمر الذى يتطلب أيديولوجية جديدة وليس مجرد أيديولوجية تعليمية جديدة ولكى تكون هذه الأيديولوجية فعالة فإنها يجب أن تكون ذات نظرة فلسفية أو دينية جديدة، تغطى كل جوانب الحياة وتتضمن تغييرا فى مثلنا يستوجب معه تغيير فى نظام أولوياتنا وهذا هو الأمر الهام، ذلك لأننا فى الوقت الحاضر نعطى أولوية كبيرة جدا لنجاحنا فى تحقيق الثروة والقوة، ولكن هذا النجاح لا يعطينا الرضا بل ويقربنا من الخطر، ونحن نشترى هذه السلع Commodities وبسببها توينبي سلعا عن عمد، لأنها أشياء مادية على حساب الاقتدار للسعادة والخلاف بين بعضنا البعض، ويورد توينبي عبارة الشاعر الإنجليزي بوب فى بداية القرن الثامن عشر "إن الدراسة الصحيحة للبشرية هى دراسة الإنسان"، ويعتبر أنه على حق بالتأكيد، إذ يجب علينا أن ندرس الإنسان بهدف أن نجعل أنفسنا وعلاقتنا بعضنا ببعض أفضل.

كما يستشهد توينبي بما ورد فى إحدى محاورات أفلاطون التى قدم فيها سقراط وجعله يقول: حين كنت صغيرا كنت مهتما بالفلسفة السارية فى هذا الوقت، والتى كانت تدور حول العلم الطبيعى: الفيزياء، والفلك، والبيولوجيا، ولكن سقراط وأصل قوله بأنه بدا يتحقق أن الشيء المهم فى الكون هو البشر، وليس طبيعتهم الحيوية أو تحركات النجوم أو العناصر الكيميائية، وهكذا، فما هو مهم هو الروح الإنسانية، ولهذا فقد قرر سقراط أن يتحول من دراسة الطبيعة غير البشرية وأن يدرس لماذا يفعل الإنسان للخطأ، فى الوقت الذى يعلم فيه ما هو الصواب، وأن يدرس هذا ليس فقط من قبيل الفضول، وإنما من أجل أن يعين نفسه وزملائه من البشر لكى يصبحوا أفضل مما هم عليه.

ويعقب توينبي إن هذا التحول فى اتجاه سقراط هو حقيقة تاريخية، وإنها على درجة كبيرة من الأهمية، وقد كانت حقا نقطة تحول ليس فقط فى الفكر اليونانى القديم، ولكن أيضا فى الأخلاق والحياة اليونانية القديمة. وعلى هذا يتمنى توينبي أن يرى شخصيات معاصرة مماثلة لسقراط، لكى تعيد توجيه العالم الحديث

لا لى تبعد تماما عن العلم والتكنولوجيا، ولكن لى نجعله يعطى أولوية لدراسة نفوسنا البشرية. ويؤكد توينبى أن السبب فى أن العالم فى هذه الحالة الخطرة ليس بسبب فشل العلم والتكنولوجيا، وبعضها ذات فائدة فعالة وأدوات قوية، وإنما لأننا لا نملك القوة الروحية أو الفهم الخير لاستخدام هذه الأدوات بالشكل الصحيح، الأمر الذى يخشى معه أننا قد نستخدمها لتدمير أنفسنا.

ويواصل توينبى هذا التصور بقوله إنه إذا افترضنا أنه فى الجيل القادم توصلت أفضل العقول والأرواح ذات البصيرة إلى نفس ما توصل لهسقراط من نتائج، وأنهم سوف يستخلصون أن أهم للمهام العاجلة على جدول أعمال البشرية ليس دفع العالم إلى مزيد من التقدم فى العلم والتكنولوجيا، ولكن إغلاق الفجوة الأخلاقية أو على الأقل جعلها أقل اتساعا مما هى عليه. ويعتقد توينبى أن هذا ليس فقط ممكنا ولكنه محتما، ويلاحظ إنه قد بدأ بالفعل بعض الطلاب فى جامعات الولايات المتحدة بعد تخرجهم يرفضون عروضاً لوظائف مغرية ماديا فى الشركات، ويتطلعون بدلا من هذا إلى مستقبل يرون فيه قيمة اجتماعية وروحية أعظم للبشرية وإرضاء نفسيا أكثر لهم من مستقبل يتبعونه، لا من أجل ذاته، وإنما من أجل المال الذى يحققه، فإذا ما سادت هذه الموجة الجديدة من القيم فسوف يزدهر الدين والفن ويضعف العلم والتكنولوجيا، والى لدى البلدان الغنية أكثر من الكفاية منه ومن القوة المادية.

وإذا كان توينبى قد ركز حتى الآن على تأثير التكنولوجيا على الجانب الروحي فى الإنسان بل وربما على تجريده من إنسانيته، فإنه يتجه بعد ذلك إلى مناقشة الأسئلة التى تتسامل عما إذا كان الدين يستطيع أن يقدم الدواء الوالى من هذا الأثر، وعما إذا كان الإنسان يستطيع أن يعيش بدون دين، وما إذا كانت الأشكال القائمة منه سوف تستمر فى الوفاء بحاجات الإنسان الروحية. ويداءه يصر توينبى على اعتقاده بأن العلم والتكنولوجيا لا يستطيعان أن تقدموا بدائل للدين أو إشباع حاجات الإنسان الروحية. ويفسر توينبى ذلك بأنه تاريخيا نشأ الدين أولاً ثم نما العلم من الدين ولم يحدث أبدا أن استطاع العلم أن يحل محل الدين أو يبطله وهو لن يحل محله أبدا، فالعلم يتطلب إجابات محددة لاختلاف عليها للأسئلة التى يطرحها، ولكن الأسئلة ذات الأهمية الأعظم لاهتمام البشر لا يمكن الإجابة عليها

بأى درجة من اليقين. ويعتقد توينبى أن السبب فى أن العلم قد نجح فى الإجابة على أسئلته أن الأسئلة التى يطرحها ليست هى أكثر الأسئلة أهمية، ويوضح توينبى أنه فى إشارته لحدود ما يستطيع للعلم عمله فإنه لا يقلل من شأن ما أنجزه العلم فى مجاله.

ويناقش توينبى اتصالاً بذلك ما يعتبر أنه مشكلة الإنسان الرئيسية ألا وهى أنانيته selfishness وتركيزه على ذاته Self Centeredness الأمر الذى يعتبره خطأ ثقافياً، ذلك لأنه ليس هناك فى الحقيقة مخلوق هو مركز الكون، وهو أيضاً خطأ أخلاقى لأنه ليس لأى مخلوق حق لأن يعامل زملاءه من البشر والكون والله وكأنهم موجودون لمجرد خدمة متطلباته.

ومشكلة الإنسان الرئيسية تلك هى التى جعلت أعظم الفلاسفة والديانات معنية أولاً وأخيراً بالتغلب على الأنانية، وعند توينبى أنه فى النظرة الأولى قد تبدو البوذية والمسيحية والإسلام واليهودية مختلفة جداً عن بعضها البعض، ولكن من ينظر تحت السطح سوف يكتشف أنها جميعاً تتجه فى الدرجة الأولى نحو النفس والروح الفردية الإنسانية وتحاول حثها على التغلب على تمركزها حول ذاتها وتقديم الوسائل لتحقيق ذلك، كما أنها جميعاً تتوصل إلى نفس للعلاج ألا وهو أن الأنانية يمكن التغلب عليها بالحب.

ويعود توينبى إلى ما يعنيه بالفجوة الأخلاقية Morality Gap وعلاقتها بالدين ويقول إن ما يعنيه أساساً بالأخلاقية هو مستوى السلوك المطلوب من الإنسان ككائن اجتماعى فى علاقته مع زملائه من البشر، وأنه من أجل أن يكون فى علاقة صحيحة مع شيء خارج نفسه فإن الكائن كما رأينا عليه أن يتغلب ويعطو على أنانيته وفرديته، وهذا هو المطلب الأول والأساسى الذى طالبه به الدين وقد كان هذا هو السبب فى أن كل دين يتضمن - بين أمور أخرى - قانوناً وقواعد للسلوك الأخلاقى، وللبشر على علاقة دائمة ومباشرة فيما بينهم أكثر من علاقاتهم مع ما هو خارج الكون، وعلى هذا فإن المطلب الأخلاقى يولجح الإنسان بشكل مستمر ودائم فى حياتهم اليومية أكثر مما يحمله الدين ولكن متطلبات الأخلاق والدين تعتمد على بعضها البعض، والرابطة بينهما أن كلا منهما يتطلب إنكار الذات والتضحية بها إذا ما تطلب الأمر.

غير أن ما يطالب به الدين والأخلاق الإنسان من نكران الذات والتخلي عن الأنانية لا يعنى فى نظر توينبى أن على الإنسان أن لا يبذل مافى وسعه فى كل وقت كى يدفع عن حريته الفردية فى الاختيار ضد كل محاولات تجريدته من هذه الحرية من جانب زملائه من البشر الذين يمسكون بالسلطة والذين تعنى السلطة بالنسبة لهم اختيارهم لأنفسهم إلى جانب اختيارهم للآخرين، ويخشى توينبى أن الطابع الجماهيرى والمعد لمجتمع اليوم وأعداده الكبيرى سوف يساعد من يهيمهم تجريد الفرد من حريته فى الاختيار خاصة وأن معظم الناس - فيما عدا قلة قليلة - لديهم تعطش للسلطة حين تتاح لهم فرصة للحصول عليها. يضاف إلى ذلك أن المجتمع المعاصر وظروفه يساعد كثيرا على إضعاف الطابع الشخصى خاصة فى المواقف التى تضعف فيها العلاقات الشخصية ، فالصاعد الراهن فى العنف والقتال فى العالم كله يبدو بشكل أكثر وضوحا فى مواقف تتضارب فيها الصلات الشخصية والحوار الشخصى، وهو ما يتضح فى حالة الحرب فحين لا نستطيع أن نسيء معاملة أو قتل زميل لنا من البشر نقابله وجها لوجه وبسهولة وضمير مستريح، على عكس ما إذا كنا لم نراه أو نعرفه أو نفكر فيه كعدو. كما يبدو أثر التخلي عن الطابع للشخصى فى الحياة اليومية فى مجال التعاملات التجارية والمؤسسات الكبيرة بما فى ذلك الجامعات الكبيرة التى يلتقى فيها أفرادها بصعوبة ومن ثم لا تتوفر لهم فرصة كبيرة لفهم مشكلات واحتياجات بعضهم البعض.

ويتصور توينبى أن التطور التكنولوجى وأدواته يساهم فى التقليل من حرية الإنسان فى الاختيار الحر وتجعله أكثر عرضة للانصياع والخضوع لما تختاره وتقرره له المؤسسات الأخرى بما فيها الحكومات ، ويضرب توينبى مثلا على ذلك بالتلفزيون الذى يجعل مشاهديه أكثر سلبية وأقل قدرة على التمييز بين ما هو حقيقى وصادق وما هو ليس كذلك... وهو فى هذا يصبح أقل حرية فى الاختيار من قارئ الكتاب مثلا، وعلى هذا يصبح مشاهد التلفزيون مهيا لكى يقبل ما تريد المؤسسات له أن يقبله، وقد كان مما اشتكى منه بعض الفرنسيين من نظام ديغول احتكار الحكومة للتلفزيون الذى يجعلهم يرون ما يريد ديغول أن يروه وأنهم بذلك يُجربون من وسائل رؤية الحقائق بأنفسهم وأن يقرروا بأنفسهم ما يريدون فعله.

كذلك يشير توينبى إلى دور الكمبيوتر فى التقليل من قيمة شخصية الأفراد، حيث يحرمهم من إمكانية السيطرة على ما تطالبهم به الوكالات الخاصة أو

السلطات العامة كالضرائب مثلاً بحجة أن كل هذا قد تقرر عن طريق الكمبيوتر وبرامجه. كذلك ساهم التقدم التكنولوجي وأدواته فى تمكين الحكومات والمؤسسات من تجميع كمية ضخمة ودقيقة من المعلومات حول نشاطات وحياة الفرد ووجهات نظره، الأمر الذى أصبح يشكل تهديداً غير مسبوق لحريات الأفراد .

غير أنه مع تأكيد حاجة الإنسان لحقه فى الاختيار الشخصى فإن توينبى فى نفس الوقت ينبه إلى حقيقة أن البشر لا يستطيعون الحياة فى مجتمع دون أن يقبلوا قدراً من النظام سواء فرضه الإنسان على نفسه أو كان مفروضاً من الغير من أجل صالح المجتمع، والأفراد أنفسهم، تماماً مثلما يجب أن يقبل سائقى السيارات نظاماً يفرضونه على أنفسهم أو تفرضه عليهم السلطات ، فيدون مثل هذا النظام فإن الطرق التى تحمل مركبات عالية السرعة والقوة سوف تتحول إلى مصيدة للموت.

## مصادر توينبى الفكرية

جاء ميلاد توينبى عام ١٨٨٩، أى قبل نهاية القرن التاسع عشر بأحد عشر عاما، وبذلك يكون قد نشأ فى مناخ يتسم بالثبات والاستقرار ويستمد أساسه من الإنجيل والكلاسيكيات اليونانية والإغريقية. وقد فاز توينبى فى بدء حياته الدراسية بمنحة داخلية وأُتحت له قراءة الكلاسيكيات، وتلاها منحة أخرى فى جامعة أكسفورد؛ حيث توسع فى قراءته الكلاسيكية، والتي نال عليها درجة الامتياز وفى نهاية عام ١٩١١، وكان قد بلغ عامه العشرين، شرع توينبى فى جولة لمدة ٩ شهور إلى اليونان، راجلا على الأقدام فى كريت مشاهدا ودارسا لأثارها التاريخية. وكانت هذه الرحلة بداية لأحد العيون التي سوف يستخدمها توينبى للعثور على مادته التي سيكتب منها دراسته عن التاريخ، وهي عين المسافر، والتي مكنته من أن يرى للحضارات فى موطنها الإنسانية وحملته إلى اليونان دارسا للهيلينيه ولتركيا دارسا للمجتمع العثماني وجعلته أيضا يلقى نظرة الطائفة على حضارات الشرق الأدنى، والمجتمعات الإيرانية والبابلية والحيثية وزار اليابان وكوريا والصين والهند لدراسة المجتمع الهندوسي، وزار - وإن كان على نحو سريع - روسيا لدراسة المجتمع للمسيحي الأرثوذكسي القديم، وعين المسافر تلك هي التي ستضفي الحيوية على وصفه للحضارة، والتي ستميزه عن غيره من زملائه المؤرخين الذين لم يزوروا أبعد من مصر "الشرق غير المتغير".

وإذا كان السفر وروية الحضارات فى بنابيعها الأولى، كانت العين الأولى والمباشرة لتوينبى وهو يدرس للحضارات العالمية الأولى - التي لم يشارك فيها لمرضه كجندى، لكي يجرى مسحاً للمسرح الدولي المعاصر. وظل يفعل هذا بشكل دائم ومتواصل، واختياره محررا وكاتبا للأجزاء الضخمة السنوية لما أصبح يعرف باسم *Survey of InterNational Affairs*، التي كانت تشرف عليها وتصدرها دار Catham House، وناشرا لعدد من المقالات حول مجالات اهتمامه فى العلاقات الدولية، وبعد عودته من مؤتمر باريس عام ١٩٤٦ بدأ فى تحرير تاريخ الحرب العالمية الثانية، وقد جاءت صفحات هذا العمل أكثر من صفحات عمله للضخم عن دراسة التاريخ، وقد تمت له دراسته للوضع المعاصر مقايسا بقياس به مجتمعات أخرى كانت أساسية لمنهجه فى دراسة التاريخ.



غير أنه إذا كان لخبرة توينبى التى اكتسبها من تتبعه ومسحه للمسرح الدولى المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى، تأثيرها العميق على توينبى، إلا أنها كانت أقل عمقا بكثير من الأكثر الذى تركته فيه الحرب ذاتها. فقد كان للحرب العالمية الأولى أثر عميق على العقل الغربى، وشأن غيره من المتقين، أصابت الحرب توينبى بخيبة أمل كبيرة، واتحدارا لمعنوياته، وخلقت لديه شعورا ممضا بأن الحضارة الغربية قد فقدت حيويتها ودخلت فى مراحل الانهيار والتفكك وبدأت له أنها حضارة هشة قابلة للفناء، وأن إنجازاتها وإنجازات الرجل الغربى التى قد تبدو ضخمة ليست بعيدة بأكثر من خطوات من حالة البربرية، وبدأ له العالم المنظم المسالم والعقلانى الذى عرفه قبل الحرب قد تصدع، وجعلته ظروف الحرب وبشاعاتها يتساءل عن كيف يستطيع المرء أن يتحدث عن حرمة الفرد وقد أصبحت أوروبا مقبرة، أو عن أولوية العقل وقد سمحت أوروبا للمذابح أن تدوم لسنوات، أو حول التقدم المستمر والكمال الإنسانى فى الوقت الذى استخدم فيه الرجال المتحضرين مواهبهم وقدراتهم التنظيمية لنهب الملايين، وهكذا كانت مذبحة الحرب العالمية الأولى التى لا معنى ولا عقل، فيها أكبر الأثر فى دفع توينبى إلى الاعتقاد أن الغرب يعانى من أزمة روحية عميقة، وبدأ يدرك أن المؤرخ جيبون Gibbon كان مخطئا فى اعتقاده أن الغرب قد لا يعانى نفس المصير الذى عانته روما. قال توينبى فى هذا :

لقد كنت حتى الأيام الأولى من أغسطس عام ١٩١٤ أتفق مع جيبون. ولكن الكارثة التى لم أنتبأ بها، فتحت عيني فجأة على الحقيقة، وتصدع الوهم الذى عشت عليه بأنى مواطن محظوظ فى عالم مستقر، تصدع بفعل الصاعقة ، ومنذ هذه اللحظة رأيت العالم بعيون مختلفة، ووجدت أنه ليس العالم الذى تصورته حتى هذه اللحظة بوهم وبلاهة.

كذلك منحت تجربة الحرب الأولى توينبى إحساسا بالرسالة، كان هذا نتيجة إعفائه من التجنيد بسبب ظروفه الصحية، فاعتبر نفسه محظوظا، وأنه قد تقاضى الحرب التى أنت بأرواح نصف زملائه فى الدراسة، ومن ثم اعتبر أن حياته هى هبة يجب أن تُستخدم لخدمة البشرية. وكتب يقول "كلما طال عمري كلما ازداد حزنى وغضبى على الاقتطاع للشرير لكل هذه الأرواح، وكانت كتابة دراسة التاريخ أحد الاستجابات للتحدى الذى وجهه لى لإجرام الحرب الذى لا مفسر له..."

والواقع أن توينبى فى صدمته فى الحضارة الغربية ولزمتها الروحية، لم يكن بمفرده، فقد شاركه فى ذلك، وفى التحول الذى حدث فى فكر ونظر العديد من الأوربيين ومفكرهم الذين فقدوا الثقة فى حيوية هذه الحضارة بل وأخذ بعضهم بحتمة سبنجلر، والاعتقاد بأن الاضمحلال Decline لا رجعة فيه، وأن السقوط وشيكاً، وعلى النقيض من التفاؤل الذى ساد فى القرن ١٩ والعلمانيين الذين تحدثوا بتوقد عن المستقبل، انشغل المثقفون فى القرن العشرين بظاهرة الاضمحلال والتفكك ومثلما أشار هانز كون Hans Khon فإن الأزمة كانت شاملة لأنها تتضمن "أسس الغرب الثقافية، ونظريته الروحية ونظامه الاجتماعى وأشكاله السياسية، وبناءه الاقتصادى وهو ما يعرض للخطر بقاء هذه الحضارة، التى بدت آمنة فى القرن التاسع عشر".

وبشكل أكثر تحديداً، فإن الأزمة التى أدت بتوينبى، وبالعديد من المثقفين، أن يفقدوا نقاءهم الفكتورى ويتنبأون باضمحلال الغرب، كانت فى افتقاد العقل الغربى للثقة بل وفى الإكثار الواسع لتقاليد عصر التنوير فى العقل والحرية. وقد جاءت أزمة الثقة هذه نقيضاً لروح التفاؤل التى سادت بعد الثورة الفرنسية وكان كوند رسيه رمزا عليها حين تنبأ بأن الوقت سوف يجرى، حين ستشرق فيه الشمس فقط على رجال أحرار لن يعرفوا ميذا آخر غير العقل.. "أما الحالة العقلية لما بعد الحرب فقد تبدلت هذه النظرة المتفائلة بنظرة متشائمة لخصها بول فاليرى بقوله "إن كل أسس عالمنا قد تأثرت بالحرب.. ولكن بين كل هذه الأثماء المجروحة كان العقل.. لقد تعرض العقل حقاً لدرس قاسٍ، تسمع شكواه فى قلوب الرجال المثقفين وهو يشكك ويصدر حكماً حزيناً على نفسه".

إلى جانب هذه الخبرات العريضة التى نجمت عن الحرب العالمية الأولى، بوجه خاص، ورويته لاهتراب الحرب الثانية، وبروز الفاشية والنظم الشمولية، والشلل الذى أصاب الليبرالية، وطغيان الجانب المدمر للتكنولوجيا، تأثر فكر توينبى كذلك بعدد من المؤرخين والمفكرين سواء فى منهجه لدراسة للتاريخ أو لمضمون دراسته.

من أهم من تأثر بهم توينبى وكان مدينا لهم فى قراره دراسة تاريخ العالم، Polybius والذى حصل منه "على وجهة نظر عالمية للتاريخ والتى أثارت انتباهى

واهتمامى طوال حياتى"، فقد حاول بوليبوس شرح مسيرة روما نحو إمبراطورية عالمية، وذلك بفحص التاريخ على نطاق واسع، واعتبر أن من المستحيل فهم كيف اختزل عالم البحر المتوسط إلى سلطة روما بكتابة روايات منعزلة عن نشاطات روما فى أسبانيا أو ميسلى، فتاريخ روما يجب أن يفحص على نطاق عالمى شامل.

ونظرا لما غرسته فيه صدمة الحرب العالمية الأولى من حاجة عميقة لفهم ومواجهة الأزمة التى حلت بالغرب الحديث، فقد قرّبه هذا من فكر : Thucdides وجعله يقارن بين تحطيم اليونانيين القدماء أنفسهم بالارتباط المبالغ فيه بنظام المدينة City-state وبين تكريس الغرب للمعاصر للدولة القومية National state الأمر الذى يمكن أن ينتج عنه أزمة مماثلة.

كذلك تعلم توينبى من أفلاطون "أن أخرج من استخدام خيالى وكذلك ذكائى، وقد علمنى أنه حين أكون فى رحلة عقلية فىأنى أجد نفسى عند الحدود العليا الموصلة إلى العقل، وأن لا أتردد فى أن أدع خيالى يحملنى على أجنحة أسطورية إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى. وحيث لم يكن أفلاطون أبدا فخورا جدا أو خجولا جدا فى استخدام الأسطورة من أجل استكشاف مناطق الكون الروحى فيما وراء نطاق العقل، فإن فى ذلك كان تواضع وجرأة عقل عظيم. ومثل أفلاطون اعتمد توينبى على الومضات المفاجئة للبصيرة وعاد إلى الأسطورة والاستعارة لتسجيل نقاط حاسمة فى رؤيته للتاريخ.

أما يونج Jung فقد عبر توينبى عن معاناته لأنه عاش لكى يرى "منابع الوعى الباطن للشعور وللنبوة تستعيد مكانها المشرف فى العالم الغربى من خلال عبقرية يونج".

كذلك كان توينبى مدينا بشدة للفيلسوف برجسون الذى قرأ أعماله بشراهة خلال أيام دراسته، ويأتى تأثير توينبى بفلسفة برجسون من حقيقة أنه رغم ارتباطه فى الأصل بالمذهب الوضعى Positivism إلا أن برجسون كان أبعد ما يكون عن الادعاء الجازم بأن العلم يستطيع أن يوضح ويشرح كل شيء ويحقق جميع حاجات البشرية، وتأكيد على أن التركيز على اللذكاء وحده إنما يضحى بالدوافع الروحية والخيال والحس ويجعل من الروح مجرد شيء آلى ، ولقناعته بأن أساليب العلم لا

تستطيع أن - تكشف عن الواقع النهائي ultimete Reality ولن على الحضارة الغربية أن تترك حدود المذهب العقلي العلمي، وأن منهج الحدس Intution والذي يجاهد العقل بواسطته من أجل علاقة متأصلة مع الشيء وتتوحد معه يستطيع أن يقول الكثير عن الواقع من منهج التحليل الذي يستخدمه العلم، كما أن النفاذ إلى الشيء من خلال خبرة حدسية هو الطريق إلى الحقيقة التي لا تستطيع الحصول عليها من خلال مقاييس العلم وحساباته . وقد أصر برجمون على أن منهج الحدس - رغم عدم استناده على إجراءات علمية - هو الطريق الأفضل للمعرفة، فالعلم ليس هو الطريق للموجه للحقيقة، كما أن العقل ليس مجموعة من الذرات تعمل وفقا لقواعد ميكانيكية، وإنما هو تيار من الوعي مدفوعا بطاقات حدسية غير عادية.

وشأنه شأن برجمون كان لدى توينبى دافعا عميقا لفهم الحياة بشكل شامل، ومثله عمل توينبى على أن يعمل العقل بالحدس الأمر الذي يمكن من خلاله الوصول إلى فهم أكثر للشخصية الإنسانية والحياة البشرية . كذلك مثل برجمون تطلع توينبى إلى التواصل مع القيم العليا التي تقع وراء للخبرة المباشرة مظهرًا بعض خصائص الصوفية الدينية. كما اتفق توينبى مع برجمون على أن البشر لا يستطيعون أبدا التغلب على قبيلتهم البدائية والتقدم نحو وفاق عالمي ما لم يبرهنوا على ولاء مشترك لله.

ورثة تشابهات عديدة بين "مدينة الله" التي كتبها القديس أوغسطين والتي كتبت حين كانت روما في حالة احتضار ، وبين دراسة توينبى عن التاريخ والتي كتبت حين كان الغرب على وشك الانهيار، فمثل أوغسطين قاس توينبى التقدم بالتقدم الروحي وتحرك الإنسان قريبا من الله واعتباره أن العيش بدون الله ينتهي بخراب الإنسان، هذا فضلا عما نراه من أن معظم عمل توينبى قد تخلله شك أوغسطين.

أما الرابطة القوية التي جمعت بين توينبى فقد كانت مع المؤرخ والمفكر الألماني سبنجلر Oswald Spengler وهي للرابطة التي نشأت من اهتمامهما المشترك بالحضارات وتتبع نشوئها وسقوطها . عبر سبنجلر عن اهتمامه بعمله "اضمحلال الغرب" The Declime of the West. لاذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٧ ثم طبعته للمعلة عام ١٩٢٣. أما توينبى فقد ضمن اهتمامه بالحضارات

وتاريخها ومظاهرها في عمله "دراسة التاريخ" Study of History الذى بدأت أجزائه الأولى تصدر عام ١٩٢٧ واكتملت أجزائها الاثني عشر عام ١٩٥٤.

هذا الاهتمام المشترك والذى سبق فيه سبنجلر توينبى بقراءة عشر سنوات فى التعبير عنه وتسجيل وجهة نظره فيه هو الذى جعل شبح سبنجلر يحوم دائما فوق توينبى. وهو الذى جعل مؤرخ آخر هو الأستاذ : H. Mitchell يخصص دراسة يقارن فيها بين سبنجلر وتوينبى، ويبحث فى جوانب الالتقاء والاختلاف بين رؤيتهم للحضارات، وأهم من هذا للقوانين التى تحكم تطورها من النشوء حتى الفناء. وبداءة يلاحظ الأستاذ ميتشيل أن القارئ الذى قرأ بإلحاح واستمرار لإكل كتاب سبنجلر "اضمحلال الغرب" وأجزاء عمل توينبى "دراسة التاريخ" قد يكون معذورا إذا ما وجد نفسه فى نهاية قراءته غير قادر على التنفس، وأنه لم يبق لديه جهد لمزيد من التركيز وخاصة فى عمل سبنجلر حيث يشعر المرء بالذهول والارتباك. ولا شك أن الخطأ يكمن فى القارئ الذى حاول تحقيق الكثير فى وقت قصير جدا فكل من سبنجلر وتوينبى يجب أن يُقرأوا بطريقة متهللة، وعلى مدى شهور وليس أسابيع بل وربما بتكريس سنوات لكل منهما وبالتأمل الطويل فيها فكليهما بشير الاهتمام بشكل عميق ويدفع للفكر، وكلاهما يمتلك معرفة واسعة ويكتب بأسهاب ويشكل منها لمن يتابعه.

ويعتبر الأستاذ ميتشيل أنه فى الوقت نفسه الذى قد يكون فيه من المبالغة القول إنه لا يمكن فهم توينبى حتى يتمكن المرء من قراءة واستيعاب سبنجلر، فإنه من الحق القول إن سبنجلر هو شرط أولى لا غنى عنه لتوينبى فدين الأول للثانى واضح وملحوظ.

وإذا كان سبنجلر وتوينبى يجمعهما الاهتمام بمولد وموت الحضارات، إلا أنهما يختلفان حول القواعد التى تحكم هذه العملية، فالحضارات عند سبنجلر تتبع فى تطورها النمط الذى يمسرى على الكائنات الحية، فهى تولد وتمر بمرحلة النضوج ثم مرحلة الوهن والهرم Sencence ثم تموت بعد ذلك، أما توينبى فهو يرفض هذا، ويفضل أن يطبق على حياة الحضارات وما تتعرض له نظريته فى التحدى والاستجابة Challenge and Response : فأى مجتمع يواجه تحديا سواء من الطبيعة أو من مجتمع آخر فإنه بقدر استجابته لهذا التحدى يعتمد مستقبله

فإذا ما ارتفع في هذا التحدى إلى مستوى المناسبة فسوف يتقدم نحو قسم أعلى وإذا ما فشل في هذا التحدى فسوف يظل راكدا وربما ينكس ويتقهقر وإذا ما واجه أحد التحديات بنجاح فسوف يكون تحديا آخر وآخر. والسؤال هو إلى أى حد ستمتلك أى حضارة القوة الداخلية والطاقة الدافعة Eilan vital بتعبير برجسون لمواجهة تحد بعد آخر وإذا ما استخدمنا تشبيه توينبى حول متسلقى الجبال : فإلى أى مدى يستقلون قبل أن تنفذ طاقاتهم ويهبطون منهكين إلى صخور مريحة على مقربة من الشاطئ، لكى يحط عليهم الكسل والاسترخاء والذي يتركهم بلا تحد لما قد يواجههم من تحد جديد الأمر الذى يقودهم إلى الموت فى نهاية الأمر.

غير أنه رغم هذا الاختلاف بين سبنجلر وتوينبى إلا أن الأستاذ ميشيل يرى أن التأمل الدقيق سوف يكشف أن منهج كلا منهما فى معالجة المشكلة هو فى التحليل الأخير منهج واحد، فالميلاد عند سبنجلر يمثل للتحدى عند توينبى، والنمو يمثل الاستجابة.

كما أن ثمة تشابها يميز عمل كل منهما فيما يتعلق بالمدخل إلى فلسفة التاريخ فهو عند توينبى ما أسماه "بتأليّة الذات للزائله" The idolisation of the ephemeral self فالحضارة تصل إلى قمة إنجازها وحيث لا تستطيع أن تذهب أبعد منها بعد أن استهلكت طاقاتها الخلاقة وامتألت بالارتياح لما حققته ووصلت فى طورها إلى طريق مسدود. وطالما إنها لا تستطيع أن تتقدم بعد هذا فإنها لا بد أن تتراجع أما سبنجلر فإنه يعبر عن هذا المصير بأنه بعد الصعود Crescendo يحل الهبوط Decreocendo وصفحات التاريخ مليئة بأمثلة من هذا المصير وهذا القدر المحتوم الذى حل على شعوب كانت تعتز بنفسها فى الماضى.

ويتساءل ميشيل عن رؤية كل من توينبى وسبنجلر لمستقبل البشرية والحضارة الغربية بوجه خاص وعما إذا كان ثمة أمل مازال باقيا أمامها، عند ميشيل كان توينبى لا يرى أى أمل أمام البشرية وهو يرى أن للحضارة الغربية مقضى عليها بل إنه يذهب أبعد من هذا - فيقول "إنه إذا كانت البشرية سوف يصيبها الجنون بالأسلحة الذرية فإننى شخصا يجب أن أتحوّل إلى الزوج فى أواسط أفريقيا لإنقاذنا من الميراث الحالى للبشرية طالما أنهم وفقا لما يقوله علماء الأجناس عندنا يمتلكون مفهوما نقيًا ونبيلًا عن الله وعن علاقة الإنسان به". أما

سبنجلر وربما بسبب أنه كان يكتب قبل الحرب العالمية الثانية وقبل اكتشاف الأسلحة الذرية - فإنه لا يحمل هذه النظرية للتاريخ المحملة بتوقع الكارثة في العالم - وبوجه خاص الحضارة الغربية - لا يتجه بالضرورة إلى الإنهيار التام والمفاجئ. وإيما نحو اضمحلال تدريجي ومتسارع بمرور الوقت والانهيار نحو السفوح من قمم وإنجازات الماضي العظيمة، فهو يرى أنه لم يعد للشعوب الغربية أي رسوم أو موسيقى عظيمة كما قد استهلكت إمكانياتهم في فن العمارة عبر مئات السنين، وليس ثمة مستقبل للفن أو الموسيقى أو العمارة بل إنه أكثر يأسا فيما يتعلق بالعلوم والرياضيات، إنه يكفي أن نرى أن زمن رجال الرياضيات العظام قد ولى وأصبح هدفنا العام ينحصر في مجرد المحافظة والتعذيب والاختيار بدلا من العمل الخلاق للنشط العظيم".

على أن ميشيل يعود فيحفظ على رؤيته تلك لفلسفة توينبى وسبنجلر ولمستقبل للبشرية والحضارة الغربية ويعتبر أنه قد لا يكون من العدل بالنسبة لهما الاعتماد على مقتطفات من أعمالهم وملاحظاتهم قد تكون منزلة عن سياقها العام. وقد يكون تشاؤم توينبى متأثرا برؤيته لأخطار الحرب الذرية بعد اكتشاف أسلحتها وإمكانيات تطورها كما أنه يمكن التماس العذر لسبنجلر أن يكتب كتابه قبل أن يتحقق هذا التقدم المدهش في الرياضيات والعلم الذي تحقق في السنوات الأخيرة. غير أنه مما يقلل هذا العذر أن سبنجلر قد وضع كتابه عن اضمحلال الغرب عام ١٩١٧ ثم ظهر في طبعة معجلة عام ١٩٢٣ وكانت نظرية أينشتاين في النسبية قد أصبحت معترف بها الأمر الذي يمكن معه القول أنه مع عام ١٩٠٠ كان عقل سبنجلر قد أغلق أمام المفاهيم والأفكار الجديدة والنسبية له كانت شخصيات ما قبل هذا للتاريخ من أمثال : Gauss, Helmboltz, Humbolatt هم السادة العظام الذين لن يتحقق بعدهم شيء كبير، كما أنه لا يمكن للقول إن عمله كان عمل رجل عجوز ومتعب وبشكل يمكن غفرانه له فقد كان عمره ٣٩ عاما عندما انتهى من كتابه.

إذا كانت هذه هي مصادر توينبى الفكرية ومن تأثر بهم من مؤرخين ومفكرين فماذا عن توينبى نفسه؟ الواقع أنه إذا بحثنا عن إجابة على هذا السؤال من خلال عمل توينبى الأساسي الذي شغل معظم حياته الفكرية وهو دراسته عن

التاريخ، فإن شراح توينبي يعتبرون أن هذا العمل ليس إلا عملاً من أعمال الكشف عن الذات Self Revelation فى هذا العمل أودع توينبي كل شيء راه وبسمعه وقرأه وتعلمه، ولم يكن بين هذه الحصلة شيئاً غير ذى قيمة وبحيث يصبح من غير المبالغة القول بأن هذا العمل هو تربية توينبي والتي بنيت وصدرت عن خبرة رجل إنجليزى من الطبقة المتوسطة تربى فى السنوات الأخيرة قبل عام ١٩١٤ وتغذى على التقاليد الكلاسيكية للمدرسة الإنجليزية العامة، ولم يكتب جملة واحدة لم تحمل أصداء وإيقاع للكتاب المقدس والأعمال الكلاسيكية فى التاريخ، والشعر والأدب التى قرأها بنهم منذ مدرسته الأولى فى وينشستر. والواقع أن نفس العناصر التى بنت مذهب توينبي هى العناصر المألوفة فى للتعليم الإنجليزى الكلاسيكى، مثل مفهوم الحضارة التى تضم معا وحدات سياسية مختلفة برابطة عميقة وإن لم تكن متجسدة، وفكرة الانسحاب والعودة Withdrawal and Return للأقلية الخلافة الشبيهة بأسطورة أفلاطون عن عودة الفلاسفة إلى الكهف ومفاهيم للتناقص وخطر الخيلاء Hybris وكل تلك الدروس التى استخلصها نظار المدارس الإنجليزية من دراسة التاريخ وأدب - اليونان القديمة بل إن شراح توينبي لا يستطيعون أن بعض مفاهيمه مثل التى تخالفت دراسته للتفاعل داخل الحضارات مثل Rout and Rally : الانكسار ولم العمل من جديد، إنما هى صدى لما كان يحدث فى ملاعب وينشستر وحيث كان يواجه فريق المدرسة بشكل شجاع خصوما متفوقين ولكنه ينزع فى النهاية تاج البطولة التى لا تستسلم.

وفى حوار أجراه مع ابنه Philip toynbee عام ١٩٦٣ : تسأل الابن عما إذا كان توينبي ينطبق عليه حكم ماركس الصارم بأن المرء هو نتاج طبقته، وعما إذا كانت طبقته الوسطى التى نشأ فيها فى نهاية القرن ١٩ قد أثرت فيما فكر وكتب. وقد أجاب توينبي بأن هذا، جزئياً صحيح وأمن على أن البشر جزئياً محكومين بالظروف الخارجية وبمصائد وجود الأمن فى الزمان والمكان ولكنه احتفظ للإنسان ببعض المبادئ وبعض الحرية، فما يفعله الإنسان وما يحدث له هو نوع من التفاعل بين ظروفه الخارجية وإرادته الذاتية وفى هذا فإن بعض الناس أكثر حرية من آخرين بمعنى أن اختيارهم للشخصى له نطاق أوسع فى مواجهة الآثار التى تفرضها عليهم خلفيتهم الاجتماعية وعلى هذا ورغم ما قد نقبله مما



يقوله مفكرين مثل ماركس وفرويد وفيرزر والذين يحدون من حرية الإنسان في الاختيار إلا أنه مازال ثمة منطقة لحرية الاختيار الإنساني ويفسر توينبي ذلك بأن الحياة البشرية هي نضال، فثمة منطقة للحرية وأخرى للضرورة والحدود بينهما ليست ثابتة ومحددة وبعض الأفراد وبعض المجتمعات أكثر نجاحا من غيرهم في خفض مساحة الضرورة ولكن هذا لا يتحقق بدون نضال صعب وهو مالا يجب التهاون فيه.

في هذا الحوار كذلك أبدى توينبي عدم تأثره بالموسيقى وأسف على ذلك ولكنه يتأثر بالشعر خاصة الشعر اللاتيني واليوناني وأيضا الشعر الغربي الحديث وفي هذا فإن جوته هو شكسبير بالنسبة له ولا يعرف لهذا سببا إلا أنه قد أخذ به منذ أن قرأه في المدرسة.

كذلك كشف توينبي عن أنه رغم عدم ولعه بالرواية إلا أنه قد قرأ للروائيين الروس وبسرور عظيم خاصة تولستوى وبشكل أكثر من تورجنيف ودوستوفسكى ولكن ربما كان تورجنيف هو أعظم فنان بين الثلاثة ، ولكن دوستوفسكى هو أكثرهم إثارة للاهتمام والذي يرى الأشياء بعمق أكثر. على أنه بوجه عام فقد أعرب توينبي أنه لا يحب الروايات التاريخية وذلك أنه يريد للتاريخ أن يكون تاريخا حقا وليس تاريخا خياليا.

## معنى الحضارة ونظام الحضارات

### ١ خبرة التاريخ وحدودها :

قبل أن نشرع فى النظر فى دراسة توينبى للتاريخ وفى جوهرها نظريته فى الحضارات وتتبعه لتطورها ولمراحل هذا التطور ، سيكون مفيدا أن نتعرف على رؤية توينبى لأهمية دراسة التاريخ والخبرة التى تقدمها هذه الدراسة فى النظر إلى الحاضر وصياغة المستقبل ولمدى قيمه وحدود هذه الخبرة.

وبدءا يعتقد توينبى أن قضية مصير الجنس البشرى لا تشغل كثيرا عقول الناس وخاصة حين تبدو الحياة آمنة ومرضية وحيث لا يكون لديهم دوافع لأن يحققوا طويلا فى المستقبل وأكثر مما تتطلبه الأهداف الآنية العملية. غير أن الناس يبدأون فقط فى الاهتمام الجاد بالمستقبل حين تبدو التوقعات حوله منذرة بالخطر. وباعتبار ما يعيشه البشر فى هذا العصر من قلق عميق ومؤثر، فإنه يصبح من الواجب أن نتساءل عما ستفعله بنا هذه الأزمة وإلى أين يقودنا وضعا الراهن.

ويسترد توينبى من هذا التساؤل إلى القول إنه طالما أن المستقبل يظل خافيا علينا حتى يحل، فإن علينا أن ننظر إلى الماضى بحثا عن الضوء الذى قد يفتح لنا حول المستقبل . والخبرة Experience هى الاسم الآخر للتاريخ. فحين نتحدث عن التاريخ فنحن غالبا ما نفكر فى الخبرة الجماعية للجنس البشرى. وفى الحياة الخاصة مثلما هو الحال فى الحياة العامة فإن الخبرة تستخدم وتصبح موضع تقدير بوجه كبير حيث إنها تساعد حكمنا على الأمور ومن ثم تمكنا من أن نصل إلى اختيارات أحكم وقرارات أفضل. وفى كل الأوقات الطيبة والسينة فإن علينا أن نخطط للمستقبل فى إدارتنا لشئوننا البشرية، ونحن نخطط للمستقبل بهدف التحكم فيه وصناعته وبالشكل الذى يخدم أهدافنا وبالقدر الذى نستطيعه وهذه المحاولة الواعية للتحكم فى المستقبل وصناعته إنما هى نشاط بشرى متميز وهى أحد الملامح التى تميزنا عن المخلوقات الحية الأخرى التى تشاركنا فى هذا العالم. فى هذه العملية يصبح من الواضح أننا لا نستطيع أن نخطط دون أن نتطلع إلى المستقبل الأمر الذى لا نستطيع أن نفعله إلا بالقدر الذى تضيئه لنا تجربتنا وهكذا فإن الضوء المستمد من الخبرة هو شئ له قيمته وهو المرشد الوحيد للتعامل مع المستقبل.

غير أن توينبى لا ينظر إلى خبرة للتاريخ وقيمتها بشكل مطلق خاصة إذا كانت شئون البشر هي الحقل الذى سيطبق فيه هذه الخبرة، وحينئذ يحق أن نتساءل إلى أى مدى يمكن أن ننق فى المعلومات التى تقدمها لنا هذه الخبرة حول المستقبل وحول الشئون البشرية. فهل يقدم لنا الماضى - فى هذا الحقل - مثل هذه المعلومات الدقيقة والمحدودة حول المستقبل والتى يمكن - وفقا لدقتها وقوتها - نستطيع أن نتنبأ بدقة حول المستقبل وبأن هذه التنبؤات سوف تؤكد نفسها وتثبت الأحداث صحتها؟

ويعتبر توينبى أنه فى تعاملنا مع الطبيعة غير البشرية ، فإن هذا السؤال ليس مطروحا ذلك أنه على عكس الطبيعة البشرية فإن التحكم والتنبؤ الناجح فى هذا المجال هو شيء نلّمسه ونمارسه كل يوم، فنحن نستطيع أن نجري عملية كيمائية ونحن متأكدين من نتائجها إذا ما أجريناها بشكل صحيح كما نستطيع أن نصنع آلة ونحن متأكدين أنها سوف تعمل، كذلك فإن مربي الماشية والمزارعين يضمنون نجاحهم لأنهم مثل عالم الفلك والمهندس والكيمائى يعملون جميعا فى ضوء التجربة. ومن الواضح أن النجاح فى هذه الميادين يرجع الى أن الطبيعة بشكل كبير أو صغير موحدة فى بنائها ومنظمة فى عملها ولهذا فإن قيمة الخبرة هنا تصبح تقريبا مطلقة وتمكنا من أن نتنبأ بنجاح.

على العكس من هذا فإنه فى ميدان الشئون البشرية فإن الخبرة تمكنا فقط من أن نخمن To guess. ففى هذا الميدان فإن ما حدث فى الماضى قد يحدث من جديد ولكن ليس حتما أن يعاود الحدوث، فالخبرة تخبرنا عن بديل أو بديلين لاحتمالات المستقبل ولكن أيا ما تكشف عنه من احتمالات وبدائل ، فإننا لن نكون متأكدين أبدا أن البيان الذى ستقدمه لنا هو بيان كامل وشامل. وهكذا فإنه فى الشئون البشرية فإن الضوء الذى تلقىه الخبرة على المستقبل هو مرشد وموجه أقل جدارة بالثقة. وفى الحياة الخاصة فليس هناك شخص عاقل يتوقع أن خبرته الماضية سوف تمكنه أن يتنبأ بالمستقبل بدقة رياضية فالخبرة الشخصية قد تستطيع أن تحسن حاسة المرء على التخمين وهذا أقل ما نستطيع أن نفعله، والخبرة الجماعية التى ندعوها عادة بالتاريخ لا تستطيع أن تقدم لنا أكثر من ذلك.

فإذا كان حقاً أن مستقبل الشئون البشرية هو شيء لا يمكن توقعه، فهل يعنى هذا أن نستخلص أن خبرة الماضى لا تقدم أى ضوء وأن دراسة التاريخ هو لذلك عمل غير مفيد؟ إن دارس الشئون غير البشرية الذين اعتادوا على للنظام الصلرم والقوانين المحكمة التى يعتمدون عليها فى مجالهم قد يقولون إن هذا شرط لا غنى عنه للدراسة الفعالة فى أى حقل ولذلك فإن دراسة الشئون غير البشرية هى شيء غير عملى . وقد نتفق على أنه من الصعب وجود علم للشئون البشرية إذا ما كنا نعلى المنهج الذى يقدم إمكانية تتبؤ معصوم من الخطأ ، ولكن أن نهجر دراسة للتاريخ على هذا الأساس يعنى أننا نذعن بشكل مبالغ فيه للشك العلمى. فليس من الضرورى للدراسة أن تكون عملية لكى تكون مضيئة ، فحيث يكون التنبؤ مستحيلاً، فإن للتخمين قد يكون له قيمة طالما جرى على أساس أننا ندرك حدود وكذلك قيمة الضوء الذى يلقى الماضى على المستقبل حين يكون ميدان دراستنا هو الشئون البشرية.

ويرى توينبى أن أحد أساتذته القدامى قال له إن معظم الناس فى العالم ليس لديهم إحساس بالتاريخ، وأن الماضى لا وجود له بالنسبة لهم وأن أقلية ضئيلة جدا هى التى لديها وعى بالتاريخ، ورغم أن هذا كان تفكيراً مذهباً بالنسبة له عندئذ إلا أنه كان يصور الحقيقة وجعله يتساءل هل نسيان التاريخ وفقدان الذاكرة التاريخية شيء مفيد؟ ويستشهد توينبى فى هذا بالحالة الأمريكية حيث اندفع الأمريكيون إلى أخطاء جسيمة لتجاهلهم للتاريخ، فقد تورطوا فى حرب فيتنام متجاهلين بشكل متعمد الخبرة الفرنسية وظنوا أن لديهم للقوة والتكنولوجيا وطريقة الحياة الأمريكية التى سوف تجعل الخبرة الفرنسية غير ذات موضوع. وبالمثل فإن كثيراً من الفشل الأمريكى منذ الحرب الثانية يمكن إرجاعه لعدم النظر إلى الحاضر فى ضوء الماضى.

ويستخلص توينبى أن الحياة البشرية هى نقاش فى البعد الزمنى ، والأفعال الحالية تجرى ليس فقط فى توقع للمستقبل ولكن أيضاً فى ضوء الماضى، فإذا ما تجاهلنا عن عمد وطعمنا الماضى فإننا نعيق بذلك أنفسنا عن القيام بأعمال تتسم بالذكاء فى الحاضر، وحين نفقد البعد التاريخى ونعتقد أن وضعنا اليوم هو وضع

فريد، وأن دروس الماضي ليس لها علاقة بنا اليوم، فإن هذا يطى أننا نفتقد الإحساس بالواقع وخاصة بجوانب ضعف وحدود الحياة البشرية. كما أن فكرة أن عصرنا هو عصر فريد هو ضرب من الكبرياء القائم على وجهة نظر زائفة عن القوة وامتياز الحياة البشرية.

ويتذكر توينبى أمثلة من هذا التفكير فى الماضي، ففي عصر النهضة طرد باحثى ودارسى العصور الوسطى، وفى عهد اسكندر الفاتح منذ تاريخ اليونان القديم باعتبار أنه لا يستحق التفكير فيه. وتوحى هذه السوابق بأن الحافز لصنع بداية جديدة للتاريخ وتجاهل الماضي هو علامة على أن ثمة شىء خاطئ فى المجتمع، فحين يعلن شعب أن للتاريخ لا يستحق أن يتذكر وأن الحاضر والمستقبل هما ما يجب أن يشغلا اهتمامنا فقط، فلا بد أن يؤثر هذا قلقنا.

إذا كانت هذه هى رؤية توينبى للتاريخ وأهمية دراسته والضوء الذى يلقيه على الحاضر والمستقبل وحدوده فما هو مجال الدراسة التاريخية عند توينبى؟ وما هو المنهج الذى اتبعه فى دراسته للتاريخ وكيف اختلف فى هذا عن غيره من المؤرخين وميزه عنهم؟

لقد توافقت حياة أرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) مع أكبر انفجار فى الخبرة الإنسانية. وربما كان توينبى بين زملائه المؤرخين هو أكثرهم الذى اشتعل خياله بهذا الانفجار وبحود رؤية للشئون البشرية، فحيث اكتفى أفضل المشتغلين بمهنة التاريخ بالنقاط بعض المظاهر الجزئية والتي لا تحمل إلا علاقة صغيرة بالأحداث التى يعيشونها، وحين كانوا يتحدثون عن دراسات تاريخية تعالج ظاهرة ذات دوال طویل، فإنهم فى هذا كانوا يحدون فى الوقت الذى كان توينبى يجتاز ويقطع عدة أميال وكان هو الوحيد الذى أقدم على منظور شامل يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى عرفها التاريخ حتى ما شهدته حياته من تكوين حضارة عالمية تعتمد على بعضها البعض وبشكل لا رجعة فيه. وقد يتجادل نقاد توينبى حول تفاصيل دراسته ومنهجه ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر المجال الاستثنائى الضخم لعمله إلى الحد الذى جعل البعض يقول إنه فى الوقت الذى مازال غيره يعمل فى الأدوار الأولى، كان توينبى يساير رواد الفضاء وينظر إلى الأرض من القمر موجهها سؤاله الشامل: ما هو مصير الحضارة التى نعيشها.

ويمكن إرجاع هذه النظرة الرحيبة للتاريخ عند توينبي إلى تعليمه الكلاسيكي والذي أعطاه الاعتقاد بأن الشؤون البشرية يمكن فهمها بوضوح حين تعالج فقط بشكل شامل وكذا درس للكلاسيكيات تعلم أن يدرس الأدب والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ لا كموضوعات منعزلة وإنما كوجوه لوجهة نظر متميزة عن العالم.

أذلك اعتبر توينبي أن المؤرخين الغربيين قد أخطأوا لأنهم تركزوا حول ذاتهم بطرق مختلفة حيث تعاملوا فقط مع التاريخ الغربي أو لأنهم درسوا التواريخ الأخرى بالدرجة التي تتصل وتتعلق بالتاريخ الغربي ولأنهم فكروا في أنفسهم على أنهم يتفوقون موقفا متميزا في التاريخ يمكنهم من الحكم عليه وكان التاريخ بشكل ما قد توقف على عالمهم الغربي . وهكذا نشأ شكل خاص من عبادة الذات التي خلقت خبايا أمام المؤرخين الغربيين حين كتبوا عن الغرب وأدى بهم ذلك إلى نوع آخر من العبادة وهي عبادة الدولة القومية - Nation - state وحيث اتجهوا إلى التعامل مع تاريخها بشكل منعزل، أما توينبي فقد نظر إلى مفهوم الدولة القومية على أنه السجن الاجتماعي الذي سجن فيه الأرواح الغربية :

The social Prison house in which our western souls are incarcerated

وكانت محاولة الهرب من هذا السجن هي نقطة البداية في دراسته، فالدولة في ذاتها ليست حقلا ذكيا للدراسة التاريخية إذ لن تستطيع أن تدرس تاريخ أيا من هذه الدول حتى توسع رؤيتنا لكي تتضمن الشبكة الكاملة لها والمترابطة ليس فقط بروابط سياسية وثيقة وإنما بالثقافة المشتركة وبتقاليد طويلة من الممارسات والمعانيات المشتركة وهو ما يمثل مفهوم الحضارة.

وفقا لهذا المفهوم جاء تناول توينبي للتاريخ عالميًا وتضمنت حدود دراساته وبحوثه كل حضارات العالم التي اختلفت وتلك التي ما زالت قائمة، ولكي نفهم القوى التاريخية التي سببت نمو وانهيار الحضارات كان من الضروري مقارنة تاريخ مختلف الحضارات، ومثل هذه المقارنة سوف تسمح للمؤرخ أن يتبين مبادئ عامة وأنماط تشترك فيها كل الحضارات. والأهمية الحقيقية لهذا المنهج هي أنها ستحث المؤرخين على أن يفكروا بشكل نقدي حول موضوعات عريضة في التاريخ وحول نماذج مشتركة في الشؤون البشرية كما سوف تجبر المؤرخ التحليلي

أن يطو على مجال تخصصه المهني وأن يعالج ويتعامل مع المعنى الأوسع للخبرة البشرية.

لذلك دعا توينبي المؤرخ واعتبر أن من ولجبه البحث عن المعنى الأوسع للتاريخ، فالتاريخ يجب أن يكون أكثر من مجرد البحث عن الحقائق والمؤرخ يجب أن يكون أكثر من أثرى ويجمع المعلومات بشكل انسكوبيدي وأن يكون أكثر من المتخصص الذي يجمع الشؤون البشرية إلى أجزاء صغيرة متعددة.

ويلخص توينبي رؤيته للتاريخ بقوله إن "حساسيتي للبيئة التاريخية هي جزء من العيش في البعد الزماني : أنه شعور نحو أجدادنا وأحفادنا ، الشعور بأننا أوصياء على كل التاريخ للبشرى وأن علينا أن نعلم ما سلم البنا وأن نتأكد أننا قد حافظنا عليه"

وفي تصنيف توينبي للحضارات وجد أنه على مدى الخمسة عشر قرنا من التاريخ المسجل ظهرت ستة وعشرين حضارة لندثر منها بالفعل ستة عشر وبين العشرة المتبقية تجمد ثلاثة هي : "Polymesians"، والإسكيمو والبدو وهي الآن أما تتعرض للاندثار أو تمتصها الحضارة الغربية القائمة، أما بالنسبة للمبعة حضارات الأخرى : الغربية والجزء الرئيسى للمسيحية الأرثوذكسية في الشرق الأدنى، وفرع المسيحية الأرثوذكسية في روسيا ، المجتمع الإسلامى ، المجتمع الهندى ، مجتمع الشرق الأقصى في الصين، فرع مجمع الشرق الأقصى في اليابان، فإن كلا منها تبدو في مرحلة الاضمحلال مع إمكان استثناء الحضارة الغربية ، والحضارات عند توينبي هي الوحدات الحقيقية للتاريخ وليس الدول States والتي ينظر إليها بازدراء وكشئ محدود وضيق Parochial كما أن التاريخ عنده ليس هو الأمم Nations التي كرهها توينبي لشعورها بالزائد بالذات تحت رداء القومية Nationalism.

غير أن توينبي يحرص في البداية على توضيح ما نعنيه بالحضارة Civilization فيقول إنه من الواضح أننا لابد نعني شيئا ما، ذلك أنه حتى قبل أن نحاول تحديد ما نعنيه فإن هذا التصنيف للمجتمعات البشرية : الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية وحضارة الشرق الأقصى والحضارة الهندية وهكذا يؤكد أنها تعنى شيئا محددا. فهذه الأسماء تستدعى صوراً متميزة فى عقولنا فيما يتعلق

بالديانات والعمارة والرسم والملوك والعادات، ومع هذا فإنه من الأفضل أن نقترّب  
لكثير لما نعتيه بالحضارة التي شغلنا أنفسنا بها طويلاً. فيذهب توينبى إلى أنه يعنى  
بالحضارة أصغر وحدة من الدراسة التاريخية التي يصل إليها المرء حين يحاول أن  
يفهم تاريخ بلده : الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً أو المملكة المتحدة. فإذا حاولت  
أن تفهم تاريخ الولايات المتحدة في ذاتها فسيكون ذلك عملاً لا يتمم بالذكاء ذلك  
أنك لن تستطيع أن تفهم مظاهر الحضارة الأمريكية مثل الجانب الذى تلعبه  
الحكومة الفدرالية فى الحياة الأمريكية والحكومة الليابية أو الديمقراطية أو التصنيع  
أو المسيحية ما لم تنظر فيما وراء الولايات المتحدة إلى أوروبا الغربية وفيما وراء  
أصولها المحلية وفى قرون قبل أن يعبر كولومبس الأطلنطى. ولكن أن تجعل  
التاريخ الأمريكى ومؤسساته مفهوماً وواضحاً لأسباب عملية فأتت لست فى حاجة  
لأن تنظر فيما أبعد من الحضارة الغربية أو إلى اضمحلال وسقوط الحضارة  
الرومانية واليونانية. هذه الحدود الزمانية والمكانية هي التي تعطينا الوحدة المفهومة  
والواضحة للحياة الاجتماعية التي تكون الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى أو  
فرنسا أو هولندا والتي يمكن أن نطلق عليها المسيحية الغربية والحضارة الغربية  
والمجتمع الغربى أو العالم الغربى، وبصورة مشابهة إذا بدأت من اليونان أو صربيا  
أو روسيا وحاولت أن تفهم تاريخهم فسوف تصل إلى العالم للمسيحى الأرثوذكس  
أو البيزنطى، وإذا ما بدأت من مراكش أو أفغانستان وحاولت فهم تاريخهم فسوف  
تصل إلى العالم الإسلامى، وبدءاً من البنجال فسوف تجد العالم الهندى وبدءاً من  
الصين أو اليابان فسوف تجد عالم للشرق الأقصى.

ويركز توينبى على الفوارق بين الدولة والحضارة فيقول إنه بينما نفترض  
الدولة التي سينتصاف أن نعيش فيها ونكون مواطنين لها مطالب ملحّة لا سبيل إلى  
تجاهلها بالنسبة لولائنا وإخلاصنا لها خاصة فى العصر الحديث فإن الحضارة التي  
ننتمى إليها إنما تعنى للكثير بالنسبة لنا ولحياتنا. وهذه الحضارة التي نحن أعضاء  
فيها تتضمن فى معظم مراحل تاريخها - أن هذه الحضارة تضم أيضاً مواطنين  
ودولاً إلى جانب دولتنا. فهذه الحضارة أقدم من الدولة التي ننتمى إليها. إن  
الحضارة الغربية مثلاً تبلغ من العمر ١٣٠٠ عاماً بينما يبلغ عمر المملكة المتحدة  
التي تتكون من إنجلترا واسكتلندا أقل من ٢٥٠ عاماً، والولايات فيها ليست أكثر  
من ١٥٠ عاماً (وقت أن كان كتب توينبى ذلك عام ١٩٤٨)، فبينما تكون الدول



ذات أعمار قصيرة وموت مفاجيء. فإن حضارة مثل الحضارة الغربية قد تبقى قرونا بعد أن تكون المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد اختفت من الخريطة السياسية للعالم. وينتهى توينبى إلى أن هذا هو السبب الذى يجعله يطالبنا بأن ننظر إلى التاريخ فى ضوء الحضارات وليس فى ضوء دول وأن نفكر فى الدول كظاهرة سياسية زائلة وكجزء من حياة الحضارات التى تظهر للدول وتختفى فى أحضانها.

غير أن أهم ما يميز دراسة ونظرية توينبى عن الحضارات هو المراحل التى تمر بها وهو فى هذا يميز بين أربعة مراحل محددة تمر بها كل حضارة : النمو Growth الانهيار Breakdown والتفكك Disintegration وعنده أن الدوافع لنشوء أى حضارة لا ينبع من أى صفة خاصة بالعنصر Race أو بيئة ملائمة وإنما من الاستجابة للخلافة لتحدى ما. فمؤسسى الحضارات المصرية كانوا روادا أبطال حولوا الأرض والمستنقعات إلى أعمال الرى وحقول ومدن وفى بحثه عن تفسير مقبول للصحود ونمو واضمحلال الحضارة ركز توينبى لا على البيئة فى ذاتها وإنما على البطولة البشرية التى مكنت الإنسان من تحويل البيئة إلى منفعة وفى وادى النيل كان على الإنسان أن ينظف الأحواض ويخفف المستنقعات قبل أن يزرع وكان عليه أن يخضع وينظم اندفاع الطبيعة قبل أن يصنع الحضارة. وتمثل هذه الفكرة نقطة مركزية فى تحليل توينبى للحضارات، فعنده أن أعظم إنجازات الإنسان تتبع من الأعمال للخلافة للروح الإنسانية، وعلى العكس فإن النقص الروحى تقىبب فى النهاية فى اضمحلال الحضارة.

ويتصل تحليل توينبى للحضارات بشكل دقيق باعتقاده أن الإنسان قد حقق عملا يدل على البراعة حين تغلب على التحديات للمادية والبيئية وصنع الحضارة، غير أنه إذا كان لهذه الحضارة أن تستمر فقد كان عليها أن تنمو من تحدى إلى استجابة إلى تحدى جديد، كما كان لابد من المحافظة على الروح للخلافة التى صنعت الحضارة إذا ما أرادت أن تواصل مسيرتها وتتفادى التوقف. فإذا ما عبر مجتمع ومر بعملية النمو فإنه سيتقدم نحو تقرير المصير Selfdetermination بمعنى تزويد نفسه بتحديات جديدة تثير سلسلة من ردود الفعل لاستجابات ناجحة وتحديات متجددة تمكنه من أن ينمو من قوة إلى قوة ويثبت هذا المجتمع بذلك أنه

يمتلك بتعبير برجسون الطاقة الحيوية ELan vital والقوة الروحية الداخلية التي تمكنه من أن يواجه تحديا بعد آخر ويقف وراء هذا الشخصيات الخلاقة وهم الرجال الذين نجحوا في تقرير المصير من خلال السيطرة على النفس وهم الذين يحركون المجتمع إذا ما رانت عليه حلة من الركود. ويتفق توينبى مع برجسون الذى اعتبر "لها قوة الدفع التي يمثلها العبقري والتي تنفذ المجتمع من عدم الاستسلام للركود" وهؤلاء الرواد هم الذين يحركون الأغلبية الرائدة غير الخلاقة ويجبروها على أن تتبع قيادتهم ويبقون على الحضارة فى حالة من الصحة والحركة والديناميكية. ولذلك فحين تسقط هذه الشخصيات الخلاقة ينتهى التناقص الذى أظهره المجتمع خلال فترة نموه وتحول الأقلية الخلاقة إلى قوة عاجزة لا تستطيع أن تتعامل بشكل ناجح مع التحديات الجديدة وبالنسبة لهؤلاء الذين لم تكن الحضارة بالنسبة لهم إلا قشرة رقيقة يعودون إلى بدائيتهم ويصبح المجتمع معرضا للإهيار. ويصر توينبى على أن المجتمعات ليس مقتضيا عليها بالموت ولا تخضع الحضارات لحكم قدرى أو لقوى خارج السيطرة البشرية وانهارها ليس كذلك نتيجة لضربة مميته توجهها جيوش غازية وإنما تنهار الحضارات لأسباب داخلية ومن جراح تلحقها بنفسها وكما عبر جورج ميرديث George Merdith "لقد تعرضنا للخيانة نتيجة لما هو زائف فى داخلنا، فالانتحار وليس القتل هو سبب موت الحضارات" التي تنهار حين يحدث تدهور داخل النظام الاجتماعى واقتدار القدرة على الاستجابة للتحدى وبدلا من التعدد والتنوع يظهر التماثل المميت، وتغيب الروح المبدعة والمبتكرة كما تبدو مظاهر الإتهيار فى الكف عن العمل والاستكانة للراحة. وإذا أصبح الأقلية الخلاقة مفتونة بانجازاتها تبدأ فى النظر إلى الماضى ونصيبها للشيخوخة وتفتقد الحيوية والحماس وقوة الاندفاع التي كانت وراء تحريك عملية ومرحلة النمو ومكنتها يوما ما لأن تستجيب بشكل خلاق للتحديات. وبأخذ الركوز إلى الراحة صورة تألية مؤسسة تعدت جدواها كما كان الحال مع اليونانيين حين افتتقوا بمدنييتهم وهو ما أحبط فيهم روح الخلق ومنعهم من تحقيق الوحدة التي كان فى مقدورها فقط أن تنفذ الحضارة الهيلينية من الإتهيار وانتشار الحروب للضرور فيما بينهم. وهكذا فإن الوعى المشترك الذى وحد صفوف المجتمع خلال فترة نمو الحضارة بقتت، والأقلية الخلاقة تفقد قدرتها على الخلق وتصبح مجرد

أقلية مسيطرة والتي تحاول أن تحتفظ بالقوة - ضد كل منطق وحق - وعلى الامتياز الموروث التي لم تعد تستحقه، أما البروليتاريا (\*) والتي تشعر أنها لم تعد مرغوبة فإنها تكف عن أن تتبع الأقلية المسيطرة التي فقدت قدرتها على القيادة وينعكس مثل هذا الانقسام في الكيان السياسي لمجتمع متفكك على الانقسام والخبرة الروحية في نفوس أبنائه. وفي مثل هذا المجتمع يصبح السلوك الاجتماعي والمشاعر في حالة غليان وحيث يفقد جانباً من المجتمع تماسكهم المايق ويتجهون إلى تعويض ذلك إما بإطلاق العنان لشهواتهم، أو إلى النقيض حيث يصبحون زهاداً متشقين. وفي كل حالة من هذه الحالات تحل الأناثية الفردية محل الإحساس بالواجب نحو المجتمع كما يرتبط بذلك ظهور شعور بانس بين أفراد هذه المجتمعات المتفككة بأنهم ينحرفون إلى عالم لا يمكن للسيطرة عليه إن لم يكن شريراً وأنهم يعيشون تحت رحمة رياح وتيارات عالم بلا هدف.

ويؤدي هذا الانشقاق لليقين للروحي بالكثيرين أن يتلمسوا الراحة بالعودة إلى الماضي وتمجد فترة مبكرة من الزمن، أو بالحلم بمدينة فاضلة وكلا الاتجاهين علامات على الانهزامية، ولذلك فهي استجابات غير خلاقة للأزمة الروحية. بل إن الأقلية الخلاقة في الحضارة المتفككة تتجه إلى تبنى النماذج الثقافية للبروليتاريا وتسود السوقية الفن والأدب والأخلاق.

(\*) لا يأخذ ترميز البروليتاريا بالمعنى الضيق الشائع الآن وإنما يفهمها على أنها الجماعة التي لم بعد لها أى مشاركة حقيقية وفعالة في حضارة مجتمعتها.

## رؤية توينبى الدينية

غير أنه من الصعب فهم نظرة توينبى العالمية، بل وفلسفته كلها، دون أن نتعرف على مضمرها الرئيسى وهو الدين ورؤية توينبى للدينية. وترتكز هذه النظرة على أنه مادام الله واحد وهو ملجأت وبشرت به الديانات العليا وأنبياؤها، لذلك يجب أن تكون البشرية واحدة. كذلك صاغ توينبى تاريخه عن العالم بإحساس دينى بالرسالة، فقد كان يأمل أن مثل هذا التاريخ سوف يساهم فى عقلية عالمية اعتبرها شرطاً رئيسياً لحفاظ الإنسان على نفسه فالبشرية يجب أن تصبح عائلة واحدة أو سوف تكمثر نفسها.

والواقع أن عقلية توينبى العالمية قد أثبتت إنسانية وتسامحاً يشبه، وكما عبر هلازكون، إنسانية وتسامح تولوستوى، وشفيتزير ولسنج. وشأله شأن لسنج، رأى توينبى اليهودية والمسيحية والإسلام تنويعات على لحن واحد وأنها جميعاً متساوية فى رسالتها الكبرى للبشرية ألا وهى رسالة الوحدة حول ما هو أعلى من الانقسامات العرقية.

وبالنسبة لتوينبى كان الدين يمثل نداء وجعله يشعر أن كل جهد بشرى خلاق هو فى النهاية جهد فاحل إن لم يدعم بتقدم الإنسان الروحى والاجتماعى. فقد رأينا هذا الإحساس بالرسالة كان فى جانب منه نتيجة لاعتقاده أن مصادفة مرضه قد أنقذته من الحرب العالمية الأولى الأمر الذى جعلته يشعر بحاجة عميقة لمساعدة زملائه من البشر وإن يعتقد أنه فى عالم يناضل من أجل البقاء، فإن عليه التزاماً للمساهمة فى فهم طبيعة الأزمة التى حلت بالغرب، وبكل العالم، وأن يقدم لها العلاج.

بهذه النظرة الدينية اعتبر توينبى أنه فى دراستنا لتاريخ العالم ككل. فيه يجب علينا أن نجعل للتاريخ السياسى والاقتصادى مكانة ثانوية وأن نعطي الأولوية للتاريخ الدينى، ذلك أن الدين - بعد كل شيء - هو العمل لجاد للجنس البشرى". وبالنسبة لتوينبى فإن رسالة المؤرخ هى نداء ذات طبيعة خاصة جداً "إنه نداء من الله للبحث عنه والتعثر عليه.. فالتاريخ هو رؤيا لله وإن كانت رؤية جزئية

وضعيفة لله وهو ينصح عن نفسه فى أفعال إلى أرواح تتشده بإخلاص". واعتقد توينبى أن مهنته كمؤرخ" هى فى النهاية سعى لرؤية الله وهو يعمل فى التاريخ" كما اعتبر أن حقائق التاريخ " هى مفاتيح الطبيعة ومعنى الكون للغامض ومكاننا فيه، وأن الواقع الروحي خلف للظواهر هو الهدف النهائى لكل فضول".

وقد نبعت وجهة نظر توينبى حول التاريخ فى جزء منها من مفهوم الإنجيل فإنه من خلال التاريخ تصطبغ إرادة الإنسان مع تعاليم الله. فإله يظهر للإنسان الطريق إلى الصواب ولكن الإنسان أيضا لديه الحرية على تحدى الله، وبينما كانت يد الله تعمل فى التاريخ فقد كان الإنسان هو الذى صنع بشكل أساسى تاريخه الخاص، وبذلك جلب الإنسان التأثير المتمرد على نفسه عقاب الله.

كذلك لم يكن مفهوم توينبى عن الطبيعة البشرية منفصلا عن نظريته الدينية فقد اعتبر أنه فى الطبيعة البشرية يكمن " عرق من الشر للشيطاني " والذى يكشف عن نفسه على المستوى الفردى فى تركيز الإنسان على ذاته وعلى المستوى الاجتماعى فى الحروب والصراعات والعداوات الطبيعية التى أثبتت أنها مهلكة للحضارات، وقد اعتقد توينبى أن الاعتقاد لليبرالى فى الخير الجوهرى للإنسان هو ضرب من البداهة فمذابح القرن العشرين دليل كاف على قدرة الإنسان على الشر، غير أن توينبى قد اعتقد كذلك أن الطبيعة البشرية لديها طاقة كامنة على الخير، وأنه فى كل روح بشرية ثمة نضال يجرى بين هاتين القوتين الروحيتين المتعارضتين، ومثل هذا الانقسام الروحي يجعل من المجتمع البشرى ساحة للحرب المستمرة بين الخير والشر.

ويعتقد توينبى أن الطبيعة البشرية فقدت توازنها ، فقد أظهر الإنسان موهبة كبيرة فى السيطرة على الطبيعة أكبر من سيطرته على مشاعره الخاصة والحياة فى رفقة وزمالة مع زملائه من البشر. وحتى لا يستهلك الشر الإنسان، فإن عليه أن ينشد تأييد وعون الديانات العليا Higher Religions ويحددها باليهودية، المسيحية، الإسلام، البوذية والهندوسية ولأن كل إنسان لديه استعداد لأن يسلك ويتصرف وكأنه مركز الكون، وأن يستغل كل إنسان آخر فى العالم فقد حاولت الديانات مناعته فى التغلب على أنانيته وذاتيته الموروثة، ومساعدة الجماعة على

التغلب على عقلية القبيلة المدمرة، وحين مىصبح أساس الخبرة والتجربة البشرية هو حب الكائن البشرى، فسوف يعامل الإنسان زميله الإنسان وإخوته البشر باحترام كبير .

غير أن ما جذب توينبى إلى الدين لم يكن نتيجة للالتزام بنظام لاهوتى معين وإنما الارتباط بالقيم النبوية Prohhetic Values واعتقاده أن الديانات تمكن الإنسان من أن يجد هدفاً فى الحياة ومن أن يتعامل مع للضغوط وللقلق العاطفى كما أنها تلمى علاقات أفضل بين البشر وتساعد على الرفاهية الاجتماعية . إن الإيمان بالله عند توينبى يجعل من الفرد شخص أفضل ويبنى فيه الضمير الاجتماعى، والقيم الدينية هى فقط التى تستطيع أن تنقذ الإنسان من التكنولوجيا وتجريدها إنسانيته، والقيم النبوية فقط هى التى تستطيع أن تحول بين البشرية وبين تدمير نفسها.

وفى يقين توينبى أن الإنسان قد أظهر دائماً مشاعر دينية ذلك أنه من خلال الدين حاول أن يجيب على أسئلة جوهرية مثل الهدف من الوجود، ومعنى الموت. وقد صنف توينبى الديانات عبر التاريخ إلى ثلاث فئات: عبادة الطبيعة، عبادة الإنسان، وعبادة الواقع المطلق Absolute Reality وهو الله. فقد عبر الإنسان عن مشاعره الدينية بعبادة الطبيعة : الحيوانات ، المطر، والقمر والكواكب. وكانت آلهة الطبيعة بالنسبة للإنسان البدائى تجسيدا للوجود فيما وراء الطبيعة ولقوى يخضع لرحمتها. وقد تراجعت عبادة الطبيعة عندما بدأ الإنسان يمارس السيطرة عليها، فالإنسان لا يعبد الأشياء التى تعلم أن يتحكم فيها . وفى الوقت الذى استمرت فيه عبادة الطبيعة بعد نشوء الحضارة إلا أنها استبدلت بديانة أدنى وهى تقديس الإنسان أو الحاكم الممتشبه بالله أو مؤسسة بشرية مثل الدولة المقنسة. ففى اليونان آله اليونانيون أثينا وبذلك أطلقوا الجانب المظلم من الطبيعة البشرية بارتكاب المذابح والاستعباد من أجل جماعتهم التى ألهموها، وهذا التحويل للجماعة البشرية إلى ما يشبه الله أدى إلى الحرب التى حطمت فى النهاية الحضارة الهيلينية. أما الفترة من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادى فقد كانت بالنسبة لتوينبى هى عصر التثوير والتقدم الروحى وهى الفترة التى بدأت بالأنبياء اليهود وأنهت بمحمد، ويدخل أيضا ضمن هذه الفترة آخرين من الأنبياء ليهود ديانات العالم المظلماء مثل بوذا، Lao-tze، وكونفوشيوس، وزاراوشوسنزا Zarathustra، وسقراط.

لذلك كان توينبى دائم الدعوى لأن يعود الإنسان إلى اللقيم التى بشر بها هؤلاء الأنبياء وهم أعظم الرجال الذين ألهمهم التاريخ، وأصر على أن الديانات العليا قدمت للإنسان العلاج من مرضه الروحي، وأوضح له كيف يمكن أن يعلو على الجشع والعدوانية وتحسين نوعية علاقاته الاجتماعية كما نبه إلى أن الديانات العليا قد علمت للبشرية أن الإنسان ليس إلها، وأن القوة البشرية محدودة، وأن الحب هو أعظم مظاهر الخير، وأن الإنسان لا يجب أن يؤلمه كائننا بشريا أو مؤسمة بشرية.

ويعتقد توينبى أن للروح البشرية سوف تقوم كل جهود العقل بنصفية المشاعر الدينية فإذا لم توجه المشاعر نحو الديانات العليا فسوف تجد منافذ أخرى لذلك، إن الكائنات البشرية لا تستطيع أن تعيش بدون شكل من أشكال الدين. وإذا لم يُكَبَّح العقل ويهذب بواسطة الديانات العليا فسوف يحتضن الأساطير التى ستقدم مخرجا لأسوأ عناصر الطبيعة البشرية.

والواقع أن مفهوم توينبى للدين كان شخصا أكثر منه طائفا أو تعصيبا. فقد بدأ توينبى تربيته الدينية كشخص لا أدرى Agnostic ثم سرعان ما استخلص من دراسته فى أكسفورد أن "الدين فى ذاته هو وهم شخصي"، إلا أنه بعد ذلك وبالتأكيد تحت تأثير الحرب العظمى الأولى وظهور النظم الشمولية والحرب الثانية الوشيكة الوقوع أضفى قيمة لا تقدر على الدلائل العليا واعتبر أنها مرجع الإنسان فى التغلب على أزماته الروحية والتأكيد له على أنه رغم إيمه فإنه يمكن تخليصه من هذا الإثم.

ورغم تقدير توينبى للديانات العليا ورسالتها للتوحيدية إلا أنه رفض بعض نظرياتها التى تنفق فى رأيه إلى المصادقية. فقد أعلن أنه مثلا لا يستطيع أن يتقبل بعض العقائد المسيحية مثل ميلاد العذراء أو البعث أو صعود المسيح للسماء ذلك أنها لا تتفق مع ما قاله لنا العلم عن إتساق الكون. كما أنه ينظر إلى المسيح لا على أنه سماوى ذو طبيعة أسمى من البشر وإنما كإنسان ألهم حب البشرية ولم يجاره فى ذلك كائن بشرى آخر. وبين كل أطفال الله كان المسيح أقربهم إلى تحقيق المثل العليا لبنيته لله. ولذلك اعتبر توينبى أن أكبر قيمة فى المسيحية هو مفهومها بأن "الحب الذى يضحى بالنفس هو أكثر الدوافع للروحية المعروفة لنا قوة".

ورغم أن المسيحية احتلت مكانا مركزيا في فكر توينبي إلا أنه اعتقد أنه لم تكن حيا فريذاً ونهايا فكل الديانات العليا عنده هي مداخل منعقبة لسر الوجود، وأنها جميعا تقويعات لموضوع واحد، وهي جميعا بعض وجوه حقيقة الله كما أنها جميعا تتوق إلى أن تساعد الفرد لبلوغ الهدف الحقيقي للحياة ألا وهو الصلة الحميمة مع الله وتحرر الإنسان بتعليمه أن الله وحده وليس الإنسان أو ما صنعه هو القيمة العليا في الكون وأنه للوحيد الجدير بالعبادة.. فضلا عن أنها جميعا تعين الإنسان على التعامل مع محن الحياة.

وقد رأى توينبي أن الديانات العليا بمخاطبتها البشرية كلها وليس جزء منها فقط إنما تمكن الإنسان من التغلب على الحواجز بين الأمم والحضارات فقد كانت منطلقات ثورية جديدة لأنها جميعا أعلنت رسالة العالمية ووحدة البشرية وهو الشرط الذي اعتبره توينبي ضروريا لبقاء البشرية.

ولم يعتبر توينبي أنه ينتمى بشكل تقليدى إلى أى من الديانات العليا لأنه لا يستطيع أن يتقبل إيجابياتها النهائية لسر الوجود، ولكنه يشارك هذه الديانات وقيمها الروحية وخاصة الحب والتعاطف وهو فى هذا يفضل "أكبر قدر من الدين على أكبر قدر من العقيدة الحازمة Dogma" ولذلك فهو يريد من كل الديانات العليا أن تفصل العناصر الجوهرية فيها وهي حب الله ومن ثم حب الإنسان عن تأكيداتها المذهبية Doctrinal والشعائرية.

وعلى الرغم من تأكيد توينبي على حدود العلم وقصوره عن تفسير بعض حقائق الكون وكذا الطبيعة البشرية إلا أنه انتقد الاتجاهات الدينية التي تقاوم الحقيقة العلمية وأدعاء السلاطة "على مجالات المعرفة هي من الاختصاص للمشروع للعقل".

والواقع أن ما يعطى وحده لفكر توينبي هو روحانيته وعالميته ورويته لأن يرى المجتمع الإنسانى موحدا بحب الله. وقد لازم هذا الفكر اعتقاده الثابت بأن التقاليد الغربية الليبرالية العقلانية لا تستطيع وحدها أن تجمع بين الناس معا فى سلام وزمالة ذلك أنها لا تستطيع أن تكبح بشكل دائم طبيعة الإنسان الشريرة التي تعرب عن نفسها فى الحروب بين الشعوب والصراعات بين الطبقات، ولكي تكون



فعائلة فإن الليبرالية والعقلانية في رأى توينبى يجب أن تستمد الإلهام من القيم الدينية وقد فهم توينبى على أنه يمثل أكبر مما تبشر به المؤسسات الدينية ورجال الدين كما فهم الحقيقة الإلهية على أنها قوة تاريخية تتدخل في نسيج وجودنا.

غير أن توينبى لم يكن مؤمنا بسيط للتفكير، فرغم عدم ارتياحه لعلمانية الغرب المعاصر إلا أنه لا يستطيع أن يخون أو يتجاهل ميراث الحرية الفكرية الذى خلفته الثورة العلمية وحركة للتنوير ولكن ما حاول توينبى أن يفعله بإخلاص فهو أن يصيغ تألفا بين العقل والدين يلائم متطلبات القرن العشرين.

## توينبى وسأزق الحضارة الغربية

فى ضوء هذا التحليل للحضارات ومراحل نموها وتطورها كيف يتصور توينبى ولق وعصير الحضارة الغربية المعاصرة وكيف تبدو له خاصة فى ضوء الخبرات التى عاشها منذ تجربة الحرب الأولى. مرورا بالحرب العالمية الثانية وما تخللها من نشوء نظم - وأيديولوجيات كالفاشية والنازية والشيوعية ثم التأثيرات العميقة والشاملة التى أحدثها تقدم العلم والتكنولوجيا؟

إن عناصر الصورة التى تخللت الأجزاء الأولى من "دراسة التاريخ" ما زالت كما هى إلا أنها قد إزدادت حدة ولحوت على تحليل أكثر تفصيلا للمشكلة الغربية فى الأجزاء الأخيرة وخلصه فى ضوء رؤيته لتطور التكنولوجيا واعتبارها أكثر الملامح أهمية للحضارة الحديثة وأصل مشكلتها المحددة.

وفصل توينبى رؤيته لأزمة الحضارة الغربية وكيف تطورت بالقول بأنه مع بداية القرن العشرين كان الغربيون متأكدين أنهم قد صنعوا طريقا عقليا ومنظما ومشيعا للحياة وأنه سوف يستمر على هذه الحال، وأمنوا بوجهة نظر جيبون بأن ما وقع لروما لا يمكن أن يحدث لأوروبا لأن الغرب قد حقق تقدما كبيرا فى المعرفة والصناعة، وقد جعلتهم هذه الثقة الزائدة فى اختلافهم عن الآخرين يتأكدون أن الأمراض التى حطمت الحضارات الأولى لن تصيبهم وأنهم سوف يواصلون التقدم بشكل مستمر، ويتنكر توينبى أنه قبل الحرب العالمية الأولى كان هو ووالديه:

"يتوقعون أن للحياة فى العالم كله ستكون رشيدة وأكثر إنسانية وديمقراطية وإنه ببطء ولكن بثبات سوف تحقق الديمقراطية السياسية عدالة اجتماعية أعظم. كذلك كان توقعنا أن تقدم العلم والتكنولوجيا سوف يجعل البشرية أغنى وأن هذه الثروة المتزايدة سوف تنتشر من الأقلية إلى الأغلبية وتوقعنا أن كل هذا سوف يحدث بشكل سلمى وفى الواقع تصورنا أن البشرية نتجه نحو جنة أرضية وأن توجهنا نحو هذا الهدف يفرضه علينا ضرورة تاريخية".

غير أن الحرب الأولى جاءت لكى تصدم الغربيين وإحسانهم بالراحة والاطمئنان وكشفت جرائم النازية فى الحرب الثانية عن "إجرام يتفح تحت سطح

الحياة فى العالم الغربى"، وأن الألمان لم يكونوا ليرتكبوا جرائمهم بدون هذه الحقيقة. وبغياى الإيمان بالتقدم المنتظم " نيقطنا على حقيقة أن الإنسان الغربى وأعماله لم بعد محصنا ضد الخطر أكثر من إنسان الحضارات التى فنت".

وبشكل متماسك مع فلسفته فى التاريخ رأى توينبى مشكلات الغرب المعاصر فى ضوء دينى فالغرب المعاصر قد أصبح حضارة ما بعد المسيحية والتى تحول فيها الولاء الذى كان للمسيحية إلى الأيديولوجيات للثلاث الليبرالية والقومية والشبوعية وهى جميعها ديانات بديلة ومتنافسة مع القيم للمسيحية، فقد أستوعبت الليبرالية المفهوم المسيحى عن احترام الفرد وتبنت الشبوعية المثل المسيحية عن العدالة الاجتماعية، ولكن كلا منهما انفصلت عن الجذور المسيحية لهذه المثل. فالصورة العلمانية للعدالة الاجتماعية ليست كافية فى جوهرها، أما ما هو أكثر ضررا بين الايديولوجيات عند توينبى فهو القومية والتى يعتبرها عودة إلى تمجيد المجتمع المحلى Local Community كما كانت تمارس فى المدن اليونانية والرومانية. ورغم أن توينبى كان يقدر التقاليد الليبرالية وكان يفضل حماية حقوق الفرد، وحكم القانون، والحكومة الدستورية والتسامح والعدالة الاجتماعية واحترام تقاليد العقل إلا أنه كان مقتنعا بأن التقاليد الليبرالية لا تستطيع أن تكون بديلة عن الدين ولا تستطيع أن تعيش دون أن تستعيد رولها بروحه ذلك أنه حين انفصلت عن المسيحية، انحطت الليبرالية إلى نوع من المنافسة الأتانية، لذلك لا تستطيع الليبرالية للمكتفية بذاتها أن تحافظ على الحرية الفردية وتتنافس بنجاح مع الأيديولوجيات الديكتاتورية إلا بعد أن تتشرب بالقيم الروحية.

وشأن محافظى القرن ١٩ اعتقد توينبى أن تركيز الليبرالية على المصلحة الذاتية يهبط بالمجتمع إلى مجموعة من الباحثين عن المصلحة الذاتية، ويفرق بين الأفراد الذين سيصبح مثلهم الأعلى هو الربح، كذلك شأن محافظى للقرن ١٩ رفض توينبى وجهة النظر اللاتينية أن الشر هو نتاج بيئة خاطئة وأعاد تأكيد وجهة النظر المسيحية عن الرذيلة الموروثة فى الإنسان، وقد اعتبر توينبى فى نقده لليبرالية أن العقل، وهو المكون الحاسم فيها، يعطى للإنسان السيادة على الطبيعة، ولكن هذا أقل أهمية بكثير من علاقة الإنسان بنفسه وزملائه من البشر وبالله.

أما للشبوعية فقد اعتبرها توينبى، أكثر من الليبرالية، اشتقاقاً أيديولوجياً مرعباً من المسيحية فى الوقت الذى نبذ فيه الماركسيون الدين بوجه عام والمسيحية بوجه خاص فإن عقيدتهم لم تكن تظهر إلا فى وسط مسيحى، وقد ظهرت الماركسية كهرطقة مسيحية هاجمت المجتمع المسيحى لعدم إخلاصه لمثل العدالة الاجتماعية التى أعلنتها المسيحية الأولى. ويشير توينبى إلى عنصر مسيحى آخر فى الماركسية وهو العالمية والعدالة الاجتماعية فهو يعتقد أن الماركسية قد استوعبت عنصراً سلبياً من التقاليد اليهودية والمسيحية وهو للتعصب" فى إيمانهم بصحة قضيتهم رفعوا راية الحرارة للعاطفة للإيديولوجية السياسية إلى مستوى الحرارة والعاطفة الدينية، وبعد أن أصبحوا متعصبين مثل المتحمسين فى الحروب الدينية أظهر البلاشفة بعض أسوأ خصائص الطبيعة البشرية وشوهوا ما كان نضالاً مشروعاً من أجل العدالة الاجتماعية "غير أنه فى الوقت الذى وجدت فيه الملامح الإصلاحية والعالمية جذورها فى المسيحية، تخلت الماركسية عن عنصر مسيحى حاسم، فقد أوصت المسيحية الأولى باهتمام الإنسان برفاهية الآخر ومشاركته له فى خيراته الأرضية "ليس كمجرد حب الإنسان، ولكن كعلاقة روحية يقف فيها الله كطرف وكذلك مخلوق بشرى، أما ماركس فقد بنى مبدأ مسيحياً وطبقه فقط على المستوى المادى للحياة فى الوقت الذى أفكر فيه وتجاهل رسالة المسيحية الروحية" ولذلك كانت الشبوعية مناقضة للمسيحية لا تبنى أى اهتمام بالفرد البشرى بكرامته وبحاجته للغذاء الروحى والنهوض الروحى والثقافى، وانتهى توينبى إلى أنه بسبب تخليها عن القيم الروحية، فلن تستطيع للشبوعية أن تتغلب على الخلافات بين الطبقات والأمم والأجناس وتوحد البشرية.

أما القومية فقد كانت بالنسبة لتوينبى أكثر أيديولوجيات القرن العشرين سوءاً، فإذا كانت الليبرالية والاشتراكية يمكن إدخالها وتكاملها مع التقاليد المسيحية فإن ذلك غير ممكن مع القومية. فلأن القومية تدفع الإنسان لأن يمجّد جماعته لذلك فهى صورة بدائية من الشبوعية، فالقومية تعيق وتحد من رؤية وحدة البشرية التى آمن بها كل الأنبياء، وفى الوقت الذى يحرر فيه الدين الإنسان من أنانيته الفطرية المتأصلة فيه، فإن القومية تكثف الجانب الأنايى والمتوحش للطبيعة البشرية ويؤثرها للحروب بين الشعوب التى تنتمى إلى حضارة مشتركة، فإن القومية تعيق

كذلك التقدم الاجتماعي. وبعد دراسته لجميع الحضارات استخلص توينبي أن القومية مسئولة بالتأكيد عن فناء مالا يقل عن ١٤ حضارة وربما مالا يقل عن ١٦ حضارة من مجموع الواحد وعشرين حضارة التي ظهرت إلى الوجود. ورغم أن رسالة الديانات هي أسمى بكثير من الرؤية القومية إلا أن الديانات لن تستطيع أن تكسر قوة القومية أو جاذبيتها وإغرائها.

وفي تقدير توينبي أن القومية الحديثة قد بذرت في تربة مخصبة بحطام المسيحية اللاتينية خلال عصر النهضة والإصلاح. وقد أدى إحياء عصر النهضة للثقافة الكلاسيكية بما فيها الإخلاص القوي للدولة، إلى رفع القومية إلى الذروة كما أن الغرب المعاصر لم يعجب فقط بغنى وأدب اليونان والرومان ولكن أيضا بإنجازاتهم السياسية والعسكرية، وقد أبدى اليونان والرومان ولاه حاداً لمجتمعاتهم ونظموا جيوشاً قوية وخاضوا حروباً للغزو، وهو ما قلدهم فيه الغرب الحديث.

من ناحية أخرى فإذا كان التشيع للقومية قد نبذ الاهتمام المسيحي بالبشرية ومثلها الأعلى في الحب، فقد اندفعت بتعصب إلى أسوأ مما ذهب وأظهره المسيحيون خلال الحروب الدينية التي حاولت أن تفرض الوحدة الروحية بالقوة، واعتبرت أن الأمة هي الخير الأسمى، وحاول المتعصبون القوميون فرض الوحدة القومية واضطهاد قوميات أخرى وإخضاع السكان لنظام ونسق موحد، وفي سعيها هذا حولت القومية المجتمع البشري إلى أمة، والحرب إلى حملة مقدسة والمعارضين إلى مرتدين والمواطنين إلى مؤمنين مخلصين. وحيث إن الإنسان قد أصبح مستعداً لأن يضحي بنفسه من أجل هذه الديانة الجديدة إنما هو دليل على أن القومية هي في حقيقتها إحياء دين نشأ في الفراغ للروحى الذى نشأ في قلوب البشر نتيجة لتلاشى الدين"

ويتصور توينبي أن القوة الأخرى التي ساهمت في الديناميكية الشيطانية للقومية هي الصناعة. فشان الديمقراطية، فإن الصناعة عالمية في روحها فهي التي تعمل بحرية وبشكل مفيد إلا إذا كان العالم منتظماً في حقل واحد من النشاط الاقتصادي، ولكن حين ظهرت الصناعة كان العالم الغربي قد تفكك إلى عدد من الوحدات السياسية والاقتصادية الصغيرة التي أقامت الحواجز أمام التكافل الاقتصادي ونتيجة لهذا التسيج المحدود لم تستطع الصناعة - مثل الديمقراطية أن

تحقق طبيعتها الأساسية وبدلاً من أن تبني نظاماً عالمياً فإن الصناعة مثل الديمقراطية، قد دعمت الدولة المحدودة التي تتشد تنمية مصالحها الاقتصادية الخاصة على حساب البشرية.

وقد وجد توينبي في النازية تجسيدا لشرور القومية، ولم تكن النازية عنده مجرد استجابة ألمانية لهزيمة الحرب الأولى وإنما "سجلت لكتمال حركة سياسية وتمجيذا وثنيا وعبادة لجماعات بشرية محدودة كانت تكتسب تدريجيا ولأكثر من أربع قرون أرضية في العالم الغربي على امتداده". وأن يسقط شعبا غربيا إلى هذا الحد إنما يدل على أن للغرب لم يرتفع عالميا وأنه مهدد باستمرار بهربرية ضالة يلوها في صدره. كما كانت النازية بالنسبة لتوينبي تمثل مرحلة من النضال بين روح للمسيحية الغربية وروح البربرية الأوربية التي صنعت للمسيحية من قوتها في بعض الأحيان ولكنها لم تظهرها كلية". ولذلك أصّر توينبي على أن كارثة النازية تبرهن على عدم كفاية الليبرالية وأن القيم العلمانية لعصر التنوير بدون دعم من القيم الروحية للمسيحية ليست كافية لكبح جماح أحط دوافع الإنسان وأنه بعد خبرة النازية أصبح من غير الممكن الاستمرار في التقدم الحتمي للحضارة الغربية العلمانية وبالكمال الذاتي للطبيعة البشرية الفاسدة، ورغم أن النازية قد ظهرت في أوروبا وبين شعب كان مسيحيا لأكثر من ألف عام فقد رآها توينبي كذلك مشكلة بشرية كما كانت ألمانية أو غربية ذلك أنه داخل الطبيعة البشرية يكمن عرق من الشر قدمت له النازية إغراء قويا، الأمر الذي دعم اعتقاد توينبي أن الحضارات مازالت تجارب أراد بها الإنسان أن يرتفع فوق المستوى البدائي وأن هذه التجارب غالبا ما تنتهي بالفشل ويصبح المفزى :

"إن الحضارة لم تكن أبدا ولا في أي مكان آمنة، إنها طبقة رقيقة من العادة تلو كتلة متوهجة من الشر هي دائما في حالة غليان تنتظر فرصة الانفجار والظهور، إن الحضارة لا يمكن أن تؤخذ أبدا كشيء مضمون وثمنها هو البقطة الدائمة والجهود الروحية التي لا تتوقف".

وهكذا رأى توينبي للقومية مثل الروح الطائفية إذا ما بلغت حد للتطرف إنما تنمر الوعي الأخلاقي والمنطقي، ومعها ، يفقد العدل والظلم والطيب والسيئ والعنف والمسالمة معانيها وتصبح كشيء ما تدينه جماعة ما كشيئ مشين وغير

إنساني حين يفعله الآخرون هو نفس ما تحض عليه شعبي أن يفعله لشعب آخر.

وإذا كان توينبي قد رأى أن الفراغ الروحي الذي نشأ عن تحول الغرب عن الدين قد ملأته الأيديولوجيات وأن أكثرها خطورة كانت القومية، فإنه قد رأى ثمة معبوداً آخر جنب الروح الغربية وهو التكنولوجيا.

فقد اعتبر توينبي أن سيطرة الإنسان الغربي على الطبيعة المادية جعله يتصرف مرة أخرى وكأنه أعلى وجود روحى فى الكون، ولأن الطبيعة البشرية ظلت آمنة كما كانت دائماً، فقد أساء الإنسان استخدام قوته التكنولوجية وخلال القرون الثلاث الماضية خلقت التكنولوجيا بيئة مصطنعة محملة بالخطر على الروح البشرية "أن الإنسان قد تغلب الآن بشكل حاسم على الطبيعة بالتكنولوجيا، ولكن كان المنصر هو التكنولوجيا وليس الإنسان نفسه، وقد استبدل الإنسان فقط سيداً بآخر، وإن كان سيده الجديد أكثر خطورة واستبداداً من الآخر، ومازال الإنسان عبداً لبيئته ولكنها الآن البيئة التى صنعها بنفسه وليست البيئة التى ملحتها له الطبيعة. إن الفجوة المتزايدة بين ما يتصوره نكلونا وبين ما نقرر فعلياً على استيعابه إنما تتعصب فى كارثة تعيسة، ذلك أننا نجد من الصعوبة البالغة أن نكيف أنفسنا مع التغير والظلمان الثورى السريع الناجم عن تفجر العلم والتكنولوجيا. إن التغير الحضارى الذى تتطلبه هذه المسيرة القوية للتكنولوجيا إنما يصيب البشرية بالدوار.

ويطبق توينبي هذا على الطبقات المتوسطة التى هجرت فى القرن العشرين العمل فى المشروع الفردى والذي كان مجال عملها التقليدى إلى العمل لمصالح المؤسسات الكبيرة، كما شعرت أيضاً بالآثار الضارة للنظام الصناعى. كذلك كان الحال مع عمال المدن وموظفى المكاتب وعلى عكس الفنيين الماهرين لعصر ما قبل الصناعة لم يعودوا يشعرون بالفخر فى عملهم، وبفقدانهم الحماس لمعلمهم فقد أصبحوا يعيشون فقط من أجل أجورهم، كذلك أدى الضغط النفسى الناتج عن الرتابة اليومية للمصنع والمكتب إلى التحول إلى العنف لتخفيف هذا الإحساس وهكذا كان العنف الذى يسود المدن أحد النتائج للعمل الذى لا يشبع نفسياً، وفى الانخراط فى أعمال مدمرة لاجتماعياً. فالعامل الذى يشعر بالملل إنما ينتقم بدون

وعى من المجتمع، وليست رثابة العمل إلا جانب واحد فقط من القلق النفسى الذى تنسم به الحياة فى المدن التى تعمل وتعيش بالآلة الميكانيكية، فالتلوث والاضواء وتكس المرور والقفازة والقيح الانفصالى عن الطبيعة تساهم أيضا فى تسميم الحياة الاجتماعية فى الوقت الذى يكثف فيه سكان المدن معيشتهم فيها إلا أنهم يطلعون إلى الهرب منها والعيش فى الضواحي وفيما تبقى من الريف وبمضون مرحلة اعتزلهم العمل فى مناطق بعيدة. وهكذا أصبح للناس ليسوا فقط غرباء فى العمل الذى يؤدونه ولكن أيضا فى المدن التى يعملون فيها وقد دفع هذا الواقع توينبى إلى الاعتقاد، وفيما عبر عنه عام ١٩٦٩، بأننا ربما صنعنا نوعا آخر من الحرب والتى قد تكون فى الواقع حربا عالمية ثالثة وهى حرب ليست فقط بين الدول والشعوب ولكن بين الشخصية والتكنولوجيا.

وفى تفسيره للاضطرابات الطلابية والحركات الانفصالية والعنف بين السود والطبقات الفقيرة اعتبر أن ذلك كله هو تعبير عن ما فعله تقدم العلم والتكنولوجيا أو ما سعى "بالعالم الجديد الشجاع"، من طمس للشخصية الإنسانية وأن هذه الحرب العالمية الثالثة التى تحدث عنها وهى فى الواقع ثورة ضد تجريد الإنسان من شخصيته وتعبير عن الغضب ضد تكنولوجيا مستبدة تحول الإنسان إلى مجرد شيء وقد لاحظ توينبى أن الإنسان تاريخيا قد شعر بارتباط وثيق بمدينة ونظر إليها بحب وكبرياء وقد عبر مفكرون عظام من أمثال تشيدينس والتقيس بول وسيسيرو وماكيافيللى وجوثة عن مشاعر دافئة نحو منهم، أما الإنسان المعاصر من ساكنى المدن الميكانيكية الحديثة فهو لا يملك مشاعر الحب والتعلق هذه تجاه مدنه الميكانيكية نتيجة لحالة الإعياء العام التى يسودها.

وهكذا أثارت السيرة المنتصرة للعلوم والتكنولوجيا قزعاج وقلق توينبى أكثر مما أثارت إعجابه، ذلك لأن النمو الأخلاقى والروحى هو ما كان يعتبره أكثر أهمية وأصبح ما يحتاجه الإنسان الغربى الذى يفاخر بتكنولوجياه هو إلى من يذكره بأنها "ليست جوهر الإنسانية، بل إنها ليست ملمح الطبيعة البشرية الأكثر حسما وأهمية للبشرية ولبقائها ورفاهيتها". ويلاحظ توينبى استطرادا من ذلك أنه منذ عصور ما قبل التاريخ كان هناك فجوة أخلاقية، ولكن هذه الفجوة تنمو بشكل أكثر اتساعا بالتقدم التكنولوجى الذى تحققه التكنولوجيا فى الوقت الذى يركد فيه الجانب



الأخلاقي. فالإنسان لم يسلم نفسه روحيا كي يتعامل ويعالج هذه القوة المادية الضخمة الأمر الذي تسبب في اتساع الفجوة على مدى الثلاثمائة عاما الأخيرة، وبسبب التخلف الروحي تحول التقدم التكنولوجي إلى مصائب اجتماعية واستخدمت أكثر الأساليب العلمية لارتكاب أسوأ المذابح التي عرفها التاريخ.

لذلك كان توينبي يدعو الغرب دائما إلى أن يتذكر حدود العلم والتكنولوجيا أكثر من أن يبالغ في تقدير إنجازاتها، وإلى أن يدرك أن العلم لم يقدم إجابات على مشكلات الإنسان التي تجلب له القلق والخوف، كما أنه لم يحرر الإنسان من أنانيته أو قلل من شعوره بعدم الأمان. وعلى هذا فإن حل المشكلات التي تطرحها التكنولوجيا ليس في المزيد من التكنولوجيا بينما اعتقد توينبي أن الإعلاء من شأن الجانب الروحي والأخلاقي هو الذي يحولنا بعيدا عن تمجيد الثروة والقوة التي يبحث عنها الإنسان على حساب السعادة البشرية والوفاء الاجتماعي كما سوف يؤدي إلى إعادة الإنسانية إلى التعليم، والتأكيد على دراسة الإنسان كهدف لتحسين أنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين.

غير أن تحفظات توينبي على العلم والتكنولوجيا وآثارها على الإنسان المعاصر في الغرب لم يكن يعني أنه يدعو إلى العودة إلى نوع وأسلوب الحياة قبل الصناعي. وكان يدرك أنه بدون التكنولوجيا الحديثة سيكون مستحيلا إطعام سكان العالم المتفجر، ولكن ما كان يريده هو إبطاء التكنولوجيا وإعادة توجيه الغرب لاهتماماته ومواهبه نحو الحاجات البشرية، واعتقد أنه إذا ما وجه الإنسان وعي روحى وبصائر جديدة في الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ينبثق هذا الوعي من تحويل الطاقة العقلية بعيدا عن التكنولوجيا ونحو الفنون الحرة، فإن الإنسان قد ينجح في إضفاء الإنسانية على نفسه وبيئته.

وفي تحليله للعلاقة بين التكنولوجيا والحضارة يتوصل توينبي إلى نتائج تتماشى مع فلسفته في التاريخ، فالتقدم والتكنولوجيا ليس مؤشرا على التقدم في الحضارة فقد تكون الحضارة في حالة اضمحلال على الرغم من إنجازاتها التكنولوجية وقد أصبحت التكنولوجيا بالنسبة للإنسان المعاصر موضوع عبادة وبدون إرشاد القيم الروحية لا يستطيع الإنسان أن يتعلم كيف ينظم ويستخدم التكنولوجيا من أجل غايات إنسانية. ويستشهد توينبي بأن الغرب الآن يدفع ثمن هذا

التأليه للتكنولوجية كما خلق وحشا يستطيع أن يميت القلوب ويدمر الأجساد وبحطم الكوكب الذى نعيش عليه، فالأسلحة النووية والتلوث وزيادة السكان وهى جميعا من إنتاج التكنولوجيا تهدد البشرية بالقضاء. لذلك اعتقد توينبى أنه بإعادة التقييم للنسبية "Prophetic values نستطيع أن نحصل على التعاطف المطلوب للتعامل مع العصر الحضارى فى إعادة توجيه طاقاتنا الفكرية من الآلات إلى الاحتياجات البشرية الحقيقية والحصول على المعرفة والحكمة للتعامل بشكل فعال مع هذه المشكلات بإبطاء الاندفاع نحو التكنولوجيا والإجهاد واشتغال أفضل أذكياؤنا بالفنون الحرة والعلوم الإنسانية التى تقدم للإنسانية الأمل فى البقاء.

وفى ضوء هذا التحليل الذى يتبعه توينبى لمأزق الحضارة الغربية وعناصر الضعف فيها فهل يعنى هذا أن الغرب قد دخل مرحلة الاضمحلال Decline؟ وهل بدأ يدخل فى الدورة التى ألمت بحضارة سابقة ومنها الحضارة الهيلينية - مصدر الحضارة الغربية - وانتهت بها إلى الانهيار والتفكك؟ وهل ثمة أمل فى أن تهرب الحضارة الغربية المعاصرة من هذا المصير. فإذا كان كذلك فما الذى يجب أن يفعله أبناءها لتفادى هذا المصير؟

على الرغم من أن توينبى لم يشك فى أن زمن المتاعب قد حل على الغرب وأنه ربما تعدى مرحلة الذروة وأن فى الغرب من المظاهر والأعراض التى مرت بحضارات سابقة منهارة، على الرغم من هذا، إلا أن توينبى لم يرى هذه الأعراض على أنها لابد أن يستتبعها انهيار الغرب وتفككه.

وينبى هذا من اعتقاد توينبى أن الإنسان ليس تحت رحمة وقوة وقد لا يرحم، وأن لديه القدرة على اختيارات ذكية وعلى استئصال مثل هذه الأورام الخبيثة التى حطمت حضارات سابقة. ورغم أن ستة عشر حضارة قد فُتيت، وتسعة أخرى تبدو على أعتاب الموت فإن توينبى لم يعتقد أن الحضارة مقضى عليها بصورة لا ترحم، ففى عنده ليست أعضاء حية محكوم عليها مسبقا بالموت ومن ثم ظن توينبى أن الغربيين مازال فى استطاعتهم أن يعالجوا الأمراض التى حلت بهم وبمجتمعاتهم وأن يبعثوا حياة جديدة فى حضاراتهم وقال :

"ليس هناك ما يمنع الحضارة الغربية من أن تتبع المساق التاريخية إذا ما اختارت ذلك بارتكاب الانتحار الاجتماعى، إلا أنها ليس محكوما عليها أن تجعل

التاريخ يكرر نفسه، ذلك متروك لها إذ تستطيع أن تعطى التاريخ تحولا غير مسبوق، وكبشر فقد منحنا حرية الاختيار ولا نستطيع أن نلقى مسئوليتنا على أكتاف الله أو الطبيعة، فيجب أن نتحملها بأنفسنا، وهو ما نقف عليه.

ويرفضه للحتمية ، أصر توينبي على أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به على أساس من أنماط أو نماذج تاريخية Historical Patterns ، ورغم اقتناعه بأن نمط الانهيار والتفكك يمكن تمييزه في تواريخ الحضارات التي ماتت إلا أنه وعلى عكس سبنجر كما رأينا - لم يفترض "تمطا محددا لا بد أن يتطابق معه تاريخ كل حضارة" ذلك لأن "المجرى الذى تسلكه الشؤون البشرية ليس مقورا سلفا"، ومن ثم فقد اعتبر أن تاريخ الحضارة الغربية هو اليوم مازال قصة لم تنته .

ومما يشجع توينبي على الاعتقاد بأن ما يتبدى من أعراض الاضمحلال فى الغرب ليست مميّنة هو وجود علامات صحة يمكنها أن تقاوم هذا المرض وأن قوى التصالح والبقاء مازالت قائمة ضد قوى الاختلاف والتفكك، فى هذا رأى حركة التكامل الأوربي من العلامات المشجعة، كذلك كان تصفية وإلغاء العبودية التى كانت مسئولة عن هزيمة حضارات فى الماضى، كما استبشر توينبي مما كانت مجتمعات أوربية قد بدأت من محاولة للتوصل إلى صيغة وسط بين المشروع الحر وبين الاشتراكية إذ رأى أن الفردية غير المقيدة إنما تؤدي فقط إلى أقلية مستبدة وماهرة تسيطر على الجماهير العريضة بينما يمكن "جرعة معتدلة من الاشتراكية أن تقى ضد خطر خضوع المجتمع إلى الشمولية المطلقة التى تفرض على البشر عدالة اجتماعية مثل تلك التى تعود خلية النحل على حساب تجريدهم الغاشم من حق الإنسان المتميز فى الحرية الذى ولد بها".

وعلى مستويين يرى توينبي الحضارة الغربية كحضارة فريدة، فأولا وبين الحضارات السبع الباقية فإن الغرب فقط الذى لم يظهر علامات لا نزاع حولها على أنه يتفكك بالفعل، وثانيا فقد انتشرت الحضارة الغربية فى العالم كله وبشكل أصبح مصير الغرب مربوطا ببزوغ حضارة عالمية. فنتيجة تدفق الأفكار الأوربية ومؤسساتها وتكنولوجيا الغرب وتبنى الأساليب الغربية والنظام الدولى الغربى دخل العالم غير الغربى فى الأزمة للاروحية للحضارة الغربية.

هذا الأمل الذى يفتح توينبى أمام الحضارة الغربية الراهنة ، هو الذى يجعله يتساءل عما إذا كان التاريخ يكرر نفسه ويتساعل بشكل أكثر تحديدا عما هى دروس التاريخ بالنسبة للحضارة الغربية المعاصرة. يرد توينبى على هذا التساؤل بالقول إنه فى هذا الجيل اكتسب السؤال القديم، فجأة، أهمية جديدة وهامة جدا حيث استيقظ الإنسان الغربى على حقيقة - الأمر الذى للدهشة لم يكن على وعى بها - أن إنجازاته معرضة للخطر بنفس ما حدث لحضارات سابقة وإنجازاتها قبل أن تنطفئ شعلة هذه الحضارات وتخمد . وهذه الحقيقة التى تكشف للإنسان الغربى هى التى جعلته يبحث فى كتب الماضى لعله يجد دروسا يستفيد بها، ولكى يرى ما إذا كان التاريخ يقدم له معلومات حول ما يجب عمله فى المستقبل؟ وإذا كان كذلك إنما هو عبء هذا العمل وهل يوضح لنا أننا مقضى علينا بشكل لا رحمة فيه، الأمر الذى لا نستطيع تقاذه أو حتى تعديله بجهودنا؟ أو أنه ينبئنا لا عن أشياء مؤكدة وإنما عن أمور محتملة أو شبه محتملة فى مستقبلنا؟ ويوضح توينبى أن الفارق العملى بين البديلين واسع ذلك أنه بالنسبة للبديل الثانى فإن دروس التاريخ لن تكون مثل رسوم السماء التى يستعملها المنجمون وإنما مثل خريطة الملاح التى ستمكن المسافر الذكى لاستخدامها على الأقل فى تقاذى تحطم سفينته، وبخلاف ما إذا كان يبحر بدونها، ذلك أنها مستقدم له الوسائل إذا ما كان يمتلك المهارة والشجاعة لاستخدامها - فى شق طريقه بين الصخور والشعاب.

ويعود توينبى إلى مناقشة التساؤل عما إذا كان التاريخ يعيد نفسه بشكل أكثر تحديدا وذلك قبل الانغماس فى الإجابة عليه، فهل يعنى هذا التساؤل شيئا أكثر من مجرد السؤال عما إذا كان التاريخ قد تحول لكى يعيد نفسه كما بدأ فى مناسبات فى الماضى؟ أو أننا نذهب أبعد من هذا لكى نسأل عما إذا كان التاريخ قد تحول لكى يعيد نفسه كما بدأ فى مناسبات فى الماضى؟ أو أننا نذهب أبعد من هذا لكى نسأل عما إذا كان التاريخ محكوما بقوانين لا يمكن خرقها والتى لم تؤثر فحسب فى كل حالة ماضية انطبقت عليها وإنما ستكون لها بالتأكيد لآثار فى كل موقف مشابه يمكن أن ينشأ فى المستقبل؟ وهنا يتوقف توينبى لكى يوضح أنه بالنسبة له فهو ليس حتميا Determinist فى قراءته للغز للحياة البشرية، فهو يؤمن بأنه حيثما تكون حياة فئمة

أمل، وأنه بمساعدة من الله فإن الإنسان هو سيد مصيره على الأكل إلى حد ما وفي بعض الوجوه.

ويستطرد توينبي بالتساؤل عما يعنيه تسليمنا بأن التاريخ يعيد نفسه - ليس بالمعنى الذى يقصده الحتميون بأن الإرادة الحرة هي مجرد وهم - وإنما بمعنى أن هذا الاتجاه نحو التكرار وهو أحد أدوات القدرة الخلاقة عما يعنيه فيما يتعلق بسؤاله الأساسى حول مستقبل الحضارة الغربية، ويُذكر توينبي بما لاحظته فى البداية بأن العالم الغربى قد أصبح فجأة قلقا للغاية حول مستقبله، وأن هذا القلق هو رد فعل طبيعى للوضع المرعب الذى يجد نفسه فيه اليوم. كما يُذكر بأن نظرة شاملة إلى التاريخ فى ضوء معرفتنا المتاحة اليوم عنه تظهر انه حتى الآن فإن التاريخ قد كرر نفسه حوالى عشرين مرة فيما أنتجه من مجتمعات وحضارات بشرية، كما تظهر أنه باستثناء الحضارة الغربية فإن كل هذه الحضارات قد ماتت بالفعل أو هي فى حالة احتضار، وزيادة على ذلك فإنه حين تدرس تاريخ هذه الحضارات الميته أو المحتضرة بالتفصيل وتفاعها بعضها ببعض فإننا نجد دلائل لما يشبه خطأ متكررا فى عملية انهيارها أو اضمحلالها ثم سقوطها النهائى Preackdown, decline and fall، وأنه من الطبيعى أن نسأل أنفسنا اليوم عما إذا كان هذا الفصل الخاص من التاريخ سوف يكرر نفسه حتما بالنسبة للحضارة الغربية المعاصرة وأن يكرره كقدر لا تستطيع أى حضارة أن تهرب منه. وحول هذا السؤال الحاسم يقرر توينبي بوضوح أنه فيما يتعلق به فإن إجابته عليه هي بالنفى ويفسر ذلك بأن الجهد الإنسانى لخلق مظهر جديد للحياة ليس عملا أو مشروعا سهلا وأن نجاحه النهائى يتحقق من خلال عملية من التجربة والخطأ، والتي تقدم من خلال تجارب الفشل السابقة بوجه خاص - فرصة لتحقيق النجاح من خلال الحكمة التى يمكن اكتسابها من المعاناة السابقة. وبطبيعة الحال فإن مجرد الفشل السابق لا يضمن النجاح لمن يحاول من جديد، ولكنه لا يحكم عليه هو أيضا بالفشل. وعلى هذا فليس هناك ما يمنع الحضارة الغربية من أن تتابع السوابق التاريخية إذا ما اختارت الانتحار الجماعى، فالحضارات لا تفنى بالقتل ولكن بالانتحار الذاتى، ولذلك يعتبر توينبي أنه ليس محكوما أن يكرر التاريخ نفسه مع الحضارة الغربية الراهنة، ذلك أنه مفتوح أمامها ومن خلال جهودها الخاصة أن

تعطى للتاريخ - فى حالتها - تحولا جديدا غير مسبوق وأن يستخدم أهلها ما منحوا من حرية الاختيار وأن لا يلقوا مسئوليتهم على أكتاف قوى أخرى كالطبيعة إذ يجب أن يمارسوها ويتحملوها بأنفسهم وهو أمر يتوقف عليهم فقط.

غير أن توينبى يعين المؤرخ الذى تابع للحضارات والتطورات التى لحقت بها ويعين الدارس الذى يتابع الواقع المعاصر الذى تعيشه حضارته الغربية ويرى ما يولجها ويعرضها للخطر التى تعرضت له حضارات سابقة لا يتركها دون مشروع يقدمه لها لكى تتقذ نفسها، وهو مشروع يعتمد على ثلاث محاور فى السياسة وفى الاقتصاد وفى عالم الروح. فى السياسة يقترح توينبى نظاما دستوريا تعاونيا لحكومة عالمية، وفى الاقتصاد يرى للتوصل إلى حل وسط يمكن تطبيقه (يختلف وفقا للاحتياجات العملية للأماكن والأزمنة المختلفة) بين النظام الحر والاشتراكية، أما فى عالم الروح فهو ينصح أبناء حضارته بإقامة نظامهم العلمانى على أسس دينية، فإذا ما توصلت الحضارة الغربية الراهنة إلى هذه الحلول الثلاث، فقد تستطيع أن تشعر أنها كسبت معركتها الحالية لحضارتها وبقاها. ويدرك توينبى أن ما يقدمه هو مشروع طموح وسوف يتطلب عملا شاقا وشجاعة عالية لتحقيق أى تقدم فى أى من أهدافه الثلاث. ويعتقد توينبى أن من بين الأهداف الثلاثة فإن الهدف الدينى هو على المدى الطويل أهمهم جميعا وإن كان الهدفين الآخرين هم أكثرهم إلحاحا، حيث اعتقد أنه إذا ما فشلت الحضارة الغربية المعاصرة فيهما على المدى القصير فإنها قد تخسر إلى الأبد فرصتها فى تحقيق الإحياء الروحى الأمر الذى لا يستطيع أن يحققه فى الوقت الذى نشاءه ولكنه يتحقق إذا ما تحقق على الإطلاق بالخطو غير المتسرع والذى سوف تتدفق عنده أعرق تيارات الإبداع الروحى ويعتقد توينبى أن أكثر الأهداف إلحاحا هو الهدف السياسى، وربما كان توينبى مدفوعا فى هذا بفكرة فى مشروعه عن الحكومة العالمية عام ١٩٤٨، بفترة الحرب الباردة والتى كانت فى هذه الوقت فى قوتها واندفاعها وما ارتبط بهذا من مخاوف حرب نوية بين الشرق والغرب، ولذلك اعتقد توينبى أن أفضل حل للمشكلة السياسية والحضارية لا للغرب فحسب بل للعالم بأسره إذا ما استطاعت الأمم المتحدة أن تتطور إلى نظام فعال للحكومة العالمية . Universal Government

وقد فصل توينبي تفكيره وتصوره للحكومة العالمية، إذ اعتبر أن الحروب بين الدول والصراعات بين الطبقات والتي تسبب فيها عدم العدالة كانت السبب الرئيسي في تحطم الحضارات، لذلك فإن الدولة العالمية المستقبلية لا يجب فقط أن تكون قوية لكي تنقذ البشرية من ارتكاب الانتحار من خلال حرب نووية، بل يجب أيضا أن تنمي الرفاهية البشرية من خلال إعادة توزيع جذرى لخيرات الأرض، ذلك أنه خلال الخمسة آلاف عاما الماضية، فإن مادة الحضارات قد استغلوا بشكل بشع الطبقات الدنيا، وبنيت إنجازات الحضارات على ظهور للفلاحين الذين ظلوا يعيشون في مستوى المجاعة. وقد دافعت القلة المحظوظة عن أنانيتها بالإصرار على أنها القيمة على مستقبل الأجيال القادمة، وأنه من أجل المحافظة عليها وفي عالم من الندرة فإن ثمار الحضارة يجب أن تذهب إلى القلة وإلا فإنه لن يكون لها ثمار على الإطلاق وسوف تنقذ البشرية مستقبلها . غير أنه إذا كانت هذه الدعوى صالحة في الماضي فإن التقدم غير المسبوق للتكنولوجيا يجعلها غير صالحة اليوم، ومع هذا فإن ثلاثة أرباع البشرية تعيش تحت خط الفقر تناضل من أجل البقاء كما فعل أجدادنا الأولون، وإذا كتلت الجماهير المتحركة في الماضي قد قبلت ذلك بخنوع فإن حالة الاستسلام هذه قد تغيرت في القرن العشرين، فعبير العالم تخطى الفقراء عن قنبرتهم ويطالبون بالتححرر من الحاجة ولم يعد في الإمكان إسكات صرختهم من أجل المساواة الاقتصادية.

ولكن كيف يمكن تحقيق مثل العدالة الاجتماعية في دولة المستقبل العالمية؟ يعتقد توينبي أن ذلك لا يتحقق بالولاء الجامد للرأسمالية أو الاشتراكية، فقد نبذ توينبي النظرية القائلة بأن الربح الفردي هو حق مقدس للفرد "الحرية غير المقيدة للمشروع الاقتصادي الحر تعنى الحرية للأقلية الصغيرة التي تسيطر على الوسائل الاقتصادية للاستفادة من الحرية هنا"، أما بالنسبة للجماهير المريضة من الناس العاديين فإنها لا تعنى الحرية على الإطلاق، لذلك اعتقد توينبي أن نظاما مختلطا من المشروع الحر والاشتراكية يقدم أفضل الحلول، ولن تنقررنسب التي تتكون من هذه الخلطة مقدما ولكن وفقا للخبرة كما سوف تخضع للتعديل . وهكذا فإن رجال الدولة الحكماء في نظر توينبي يجب أن لا يربطوا أنفسهم بأيدولوجية معينة سواء كانت رأسمالية أو شيوعية، وهي الأيدولوجيات التي اكتسبت صفة شبه دينية

كما يجب أن لا يتحولوا إلى الأيديولوجية باعتبارها الدواء للشاقي لأمراض المجتمع وإما يجب أن يناضلوا من أجل حلول عملية معقولة لمشكلات معينة وقائمة على التوازن والاعتدال.

وقد اعتقد توينبي أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في العالم يمكن أن تضيق من خلال دولة عالمية قوية بما فيه الكفاية لكي تفرض الضرائب على الأمم الغنية لفائدة ومصالحة الأمم الأفقر، وكخطوة عاجلة، فقد حث الأمم الفقيرة على تشكيل اتحاد بينهم شبيه باتحاد نقابات العمال وتشددها "فيما ما استطاعت الأغلبية الفقيرة من دول العالم أن تعلن الاضراب بشكل جماعي برفضها بيع عملها للبلدان الغنية ومواردها الأولية إلا وفق شروط أكثر عدالة، فإنها تستطيع أن تجبر البلدان الغنية على تغيير شروط التجارة لصالح الدول الفقيرة، وسيكون هذا انتصارا للعدالة.

أما مقترحات توينبي الأخرى للإصلاح الاجتماعي في دولة المستقبل العالمية فقد تضمنت برامج حكومية لتحديد النسل وتوسيع التعليم وإعادة توجيه المبالغ بعيدا عن التسلح وبرامج القضاء على إطعام وكساء الفقراء العالم. وقد نظر توينبي إلى برامج القضاء باعتبارها مغامرة عظيمة ولكنه شبهها بالأهرامات وقصور فرساي: نماذج على المهارة البشرية ولكن على حساب الأغلبية الفقيرة، ولذلك فهي تثير الغضب الأخلاقي. كذلك دعا توينبي إلى وقف إنتاج السلع التي تشبع حاجات زائفة، وتوجيه الطاقات الإنتاجية نحو المعركة العالمية ضد الفقر، ولضمان البقاء في المستقبل علينا أن نغير فكرة أن ثمار التكنولوجيا إنما تنتمي فقط لمنهجها المباشرين وأن تشترك كل البشرية في الثروة المادية التي تنتجها للتكنولوجيا.

ولا يجب في اعتبار توينبي أن تقتصر الدولة العالمية واهتماماتها على تلبية حاجات الإنسان المادية وحدها وإنما يجب أيضا أن تزوده بمخرج لطاقتها الروحية في تحقيق أهدافه الحقيقية في الحياة والتي هي أهداف روحية. ونحو هذه القضية يتعين إعادة تعليم وتربية الإنسان الصناعي وتمكينه من الاستخدام السليم لقragه حتى يجد الإشباع في الفكر والفن والدين وهي الميادين التي يستطيع الجانب الروحي في الطبيعة البشرية أن يجد نطقا لا نهائيا، فإذا نجحنا في ذلك فقد نشهد ازدهارا جديدا وعصرنا ثانيا للنهضة بدلا من تطور مجتمع طفيلي والذي يمثل برويتاريا المدن في الإمبراطورية الرومانية يعيش من أجل الخبز ومهرجانات



التسلية والترفيه، يتحول فيها البشر إلى همجين وبدائيين ووحوش ضارية إذا لم يحصلوا على ذلك".

غير أن توينبى قد حذر من أن النضال من أجل العدالة الاجتماعية لا يجب أن يفهم على أنه إطلاق لمبادئ المساواة فى التعليم بشكل يخلق الأطفال الموهوبين وينزل بالتدريس والتعليم إلى المستويات الدنيا وبشكل يضر فى النهاية بالمصلحة العامة ذلك أن الأفراد الاستثنائيين كانوا دائما هم الذين يجدون خطى البشرية.

وفى عالم دولة المستقبل العالمية التى يتصورها توينبى فإن الغاية الحقيقية للحياة البشرية لا يمكن أن تكون تراكم كميات ضخمة من السلع الاستهلاكية بالشكل الذى تملبه الإعلانات عن هذه السلع وفى اتباعه لغاياته الروحية فى الحياة وبالشكل الذى يميزه عن غيره من الكائنات التى تشاركه فى سكنى الكرة الأرضية. فالإنسان لا يحتاج إلا لكمية صغيرة من السلع الاستهلاكية، فقد حذرتنا الديانات العليا دائما ضد الانغماس الزائد فى إشباع حاجتنا المادية لأنها تعتقد عن حق أن هذا عائق فى الحصول على الغاية الحقيقية للإنسان وهى سعيه وراء الأهداف الروحية" ولذلك حثت جميع الديانات الإنسان أن يعترف ويدرك مسؤوليته الأخلاقية إزاء زميله الإنسان وأن لا يهتم فقط بحاجاته الخاصة وإنما أيضا بحاجات جيرانه، ويعتبر توينبى أنه فى عالم اليوم فإن هذه للتعاليم موجهة إلى الأقلية الغربية الغنية ومن هنا حث توينبى الغربيين أن يلتزموا بالفضيلة الدينية فى إنكار الذات لكى يهتموا بالفقراء الذين يعانون فى العالم كله.

ويتصور توينبى أن أجيال المستقبل قد تنظر إلى الخلف بمشاعر من الدهشة وربما الاشمئزاز والخل إلى مادية الغرب الحالية، ولأن مثل هذه الطاقات الكبيرة قد بُدء فى محاولات تحقيق والحصول على كميات كبيرة من الممتلكات المادية، ومع هذا فما زال فى وسع الإنسان الغربى الذى ضحى بروحه بتركيز حماسى زائد على السلع المادية أن يكفر عن نفسه باستخدام التكنولوجيا لصالح كل البشرية.

أما المشكلة التى شغلت توينبى وهو يفكر فى مستقبل الغرب الصناعى بوجه خاص فهى مشكلة أوقات الفراغ، ففي الماضى كانت الأقلية فقط هى التى تمتلك من التعليم والنظام الذى يمكنها من استخدام وقت الفراغ بشكل خلاق وهذه الأقلية

الخلاقة هي التي قدمت للبشرية كنوزا لا تقدر من الثقافة غير أنه لم يكن من السهل نقل اهتمامات واتجاهات هذه الأقلية إلى غيرها، لذلك عبر توينبي عن خشيتيه من تأثير وقت الفراغ بهذا الشكل المسرف على الجماهير غير المهياة لاستخدامه بشكل سليم الأمر الذى سوف يؤدي إلى تدهور أخلاقى وثقافى، إن التكنولوجيا تخلق فراغا كبيرا ولكن الإنسان الصناعى غالبا ما يخاف الفراغ لأنه يواجهه بنفسه ويجعله معزولا بشكل مرعب، وهو يقضيه بطريقة إنسانية دنيا، وكمفزع سلبي أمام التلفزيون والأحداث الرياضية ولذلك فإن مجتمع المستقبل يجب أن يقوم على النظام التعليمى الذى يشجع على النمو الجمالى الثقافى وتنمية طاقاته الروحية.

وفى استشراف توينبي لمستقبل العالم الغربى، هل كان متفائلا حول هذا المستقبل؟ لقد لاحظنا أنه فى الوقت الذى وافق توينبي على أن القرن العشرين قد زادت فيه الثروة المادية وتحسنت الظروف كثيرا بالنسبة للطبقات الفقيرة، إلا أنه لاحظ كذلك مالم يتنبأ به أحد قبل عام ١٩١٤ من حدوث تراجع أخلاقى كبير فى معاملة الناس بعضهم للبعض" كما لاحظ، وكان يتحدث عام ١٩٧١، إن العالم الغربى قد أصبح أقل إنسانية بكثير عما كان عام ١٩١٣ وعلينا أن نواجه إمكانية أنه سيصبح أكثر لا إنسانية مع نهاية القرن. وقال توينبي أن العالم الذى تطبع بالثقافة والحضارة الغربية فى القرن العشرين يكشف عن تناقضات غير عادية، وفى الوقت الذى حلقت فيه المشاعر الإنسانية كما يبدو فى الإهتمام بحقوق الإنسان فى كل الشعوب تظهر قسوة الحروب الطبقيّة والقومية والعنصرية الإنسان بأسوأ ما فيه.

غير أن توينبي ظل يؤمن بأن البشر لديهم القدرة على أن يفضلوا الحياة على الموت والخير على الشر ويمتلكون ما يمكن أن يوجههم بشكل إنسانى وسليم فى سلوك رجال مثل غاندى ومارتن لوتر كنج. كما كان يؤمن أن الإنسان سوف يختار فى النهاية وإن كان بشكل متردد ومتأخر - الحياة على الانتحار بنبذة المؤسسات التى تقوم على السيادة والحرب والتى ظلت حتى الآن عزيزة على قلوب البشر، فإذا تخلت البشرية عن العقلية القبلية والآلهة المزيفين وتشربت بالعالمية والقيم الروحية فإنها ومن خلال معالمتها تكون قد اكتسبت الحكمة.

## العالم والغرب

يعالج توينبي الغرب وحضارته ولكن من منظور أشمل ألا وهو علاقته ببقية العالم وشعوبه وأجناسه ، وتتعلق معالجة توينبي لهذه العلاقة من اعتقاده فى حقيقتين: الأولى أنه حتى فى قمة قوته فإن الغرب لم يكن هو الممثل الوحيد على مسرح التاريخ الحديث، والحقيقة الثانية، أنه فى المواجهة بين العالم والغرب التى تجرى منذ أربعة وخمسة قرون فإن العالم وليس الغرب هو الجانب الذى يمتلك خيرة ذات أهمية فى هذه المواجهة، إنه لم يكن الغرب الذى تعرض للضرب والإبذاء من العالم إنه العالم الذى ضرب وأودى من الغرب.

وينصح توينبي الغربى الذى يريد أن يعالج هذا الموضوع بأن عليه أن يحاول للحظة أن يتسلخ من جلده الوطنى، وأن ينظر إلى المواجهة بين العالم والغرب من خلال عيون الأغلبية غير الغربية للبشرية، ولأيا كان اختلاف الشعوب غير الغربية فى العالم عن بعضها البعض فى العنصر واللغة، والحضارة والدين ولكن إذا ما سألهم أى سائل غربى عن رأيهم فى الغرب فسوف يسمع منهم جميعا إجابة واحدة سواء كانوا روسا أو مسلمين أو هندوس أو صينيين أو يابانيين أو غيرهم، سوف يقولون له إن الغرب هو المعتدى فى العصور الحديثة، وسوف يكون لكل منهم تجربته مع العدوان الغربى. سوف يذكره الروس أن بلادهم قد تعرضت للغزو من الجيوش الغربية فى أعوام ١٦١٠، ١٧٠٩، ١٨١٢، ١٩١٥، ١٩٤١، وسوف تذكر له شعوب أفريقيا وآسيا أن البعثات التبشيرية الغربية والتجار والجنود الذين جاءوا من وراء البحار وتنفقوا على بلادهم منذ القرن ١٥، وسوف يذكره الآسيويون أيضا أنه خلال هذه الفترة احتل الغربيون نصيب الأسد من أراضي العالم الخالية فى الأمريكتين ، وإستراليا، ونيوزيلندا، وسوف يذكره الأفارقة أنهم قد استعبدوا ورحلوا عبر الأطلنطى من أجل خدمة للمستعمرين الأوروبيين للأمريكتين وكادوات حية لإشباع جشع سادتهم الغربيين للثروة. وسوف يذكره خلفه السكان الأصليين لأمريكا الشمالية أن أسلافهم قد اجتثوا إتاحة مكان للمتطفلين الغربيين وصيدهم الأفريقيين.

فى سبيل توضيح الحقائق والوقائع التاريخية السابقة مع علاقة الغرب مع الشعوب والأجناس وممثلى الحضارات التاريخية فى العالم، بحث توينبي علاقة

الغرب مع روسيا، وحضارات الشرق الأقصى فى الصين واليابان والهند.

وسوف نختار ، كنماذج عن علاقة الغرب بالعالم ما أوضحه توينبى عن علاقة الغرب بروسيا، وعلاقته بعالم الإسلام.

ويبدأ توينبى بتجربة روسيا مع الغرب باعتبار أن روسيا هى الجزء من العالم الذى يضم أغلبية غير أوربية، ورغم أن الروس أصبحوا مسيحيين، ومازال الكثير منهم مسيحيين، إلا أنهم لم يكونوا أبدا مسيحيين غربيين، فقد تحولت روسيا إلى المسيحية لا عن طريق روما مثلما تحولت إنجلترا ، ولكن من خلال القسطنطينية، ورغم أصولهم المسيحية الوحيدة، فإن المسيحيين الغربيين والشرقيين كانوا دائما غرباء عن بعضهم البعض بل ويحملون مشاعر متبادلة غير متعاطفة بل ومعادية، كما أن استسلام الروس للنظم الأوتوقراطية المركزية التى أصبحت شيئا تقليديا فى حياة روسيا ، كانت كما يراها الغربيون أحد الصعاب فى علاقة روسيا مع الغرب.

وخلال القرون القليلة الماضية التى كانت دائما تهديدا من الغرب لروسيا من القرن الثالث عشر حتى عام ١٩٤٥، فإن هذا التهديد قد أصبح أكثر خطورة بظهور الثورة الصناعية والتكنولوجية فى الغرب، فحين استخدم الغرب الأسلحة النارية تبعته روسيا، وفى القرن ١٦ استخدمت هذه الأسلحة الجديدة لهزيمة التتار فى وادى فولجا والشعوب الأكثر بدائية فى لاوزل وسبيريا ، إلا أنه فى عام ١٦١٠ مكنت الأسلحة الغربية البولنديين من احتلال موسكو والسيطرة عليها لمدة عامين، وفى نفس الوقت تقريبا استطاع السويديون تهديد روسيا فى منفذها على البحر البلطيق، وقد كان رد الروس على هذه الأعمال العدوانية من الغرب هو تبنى تكنولوجيا الغرب كلية، ولم يقتصر هذا على الأدوات المادية لهذه التكنولوجيا بل شمل أيضا أكبر قدر من أسلوب الغرب فى الحياة باعتبار أنه ليس شيئا منفصلا عن التكنولوجيا الغربية، ويلاحظ توينبى أن هذه الثورة للتكنولوجيا والاجتماعية قد فرضت على الروس فى نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر من أعلى بواسطة عبقرية رجل هو بطرس الأكبر، وتقدم شخصية بطرس المفتاح لفهم علاقات العالم مع الغرب ليس فقط فى روسيا بل وفى كل مكان، فبطرس كان يمثل نموذج المصلح الأوتوقراطى فى إدخال الأساليب الغربية ، وهو الذى - خلال

القرنين ونصف الماضيين - قد أنقذ العالم من الوقوع كالية تحت السيطرة الغربية بإجبار العالم على تدريب وتهينة نفسه لمقاومة العدوان الغربي بأسلحة غربية . وقد تبعت خطواته - يوعى أو بغير وعى - شخصيات مثل السلطان - سليم الثالث - ومحمود الثانى، وكمال أتاتورك فى تركيا ،ومحمد على باشا فى مصر، ورجال الدولة اليابانية الذين قادوا ثورة لتحديث اليابان فى ستينات القرن ١٨. وقد وضع بطرس الأكبر روسيا فى سباق تكنولوجياى مع الغرب، وهو السباق الذى مازال قائما ، وخلال هذا السباق لم تكن روسيا تستطيع أن تركز إلى الراحة لأن الغرب كان دائما يقيم تحديا جديدا ، وقد وضع بطرس وخلفاؤه فى القرن الثامن عشر روسيا قريبا من مجارة الغرب فى هذا الوقت وبشكل مكنها من هزيمة السويد بين عام ١٧٠٩، والغزاة الفرنسيين عام ١٨١٢، غير أن ثورة الغرب التكنولوجية فى القرن ١٩ وضعت روسيا من جديد فى المؤخرة بحيث هُزمت روسيا فى الحرب العالمية الأولى من الغزاة الألمان مثلما هُزمت قبل ذلك بمائتى عام من البولنديين والسويديين، وقد كانت هذه الهزيمة أحد الأسباب الرئيسية فى أن تحل الحكومة للشعبية الأوتوقراطية محل للقيصرية فى روسيا التى هزمتها التكنولوجيا الغربية للصناعية والعسكرية، وشرع النظام الشيوعى من ١٩٢٨ - ١٩٤١ فى أن يحقق لروسيا مرة أخرى ما حققه لها بطرس الأكبر منذ ٢٣٠ عاما مضت، فقد هزمت تكنولوجيا الثورة الشيوعية فى روسيا الغزاة الألمان فى الحرب الثانية، مثلما هزمت ثورة بطرس تكنولوجيا الغزاة السويديين عام ١٧٠٩ والغزاة الفرنسيين عام ١٨١٢، أما الثورة التكنولوجية للثالثة التى واجهها الروس فهى تلك التى أطلقها حلفاؤهم الأمريكيين والغربيين بإلقاءهم قبلة نرية على اليابان، ومنذ ذلك اليوم والروس فى مسيرة قوية للحاق بهذه الثورة التى هدنتهم، للمرة الثالثة، بوضعهم فى المؤخرة أما نتيجة هذا الحدث الثالث والمنافسة المستمرة بين روسيا والغرب، فإن توينبى يراها - حين قدم هذه الرؤية للتاريخية لعلاقة الغرب بروسيا عام ١٩٤٨ - - - - - تمكن فى المستقبل. ولتصلا بهذا يعتبر المحللون لانهيار النظام الشيوعى فى روسيا أنه انهزم أمام الغرب على جبهة السباق العلمى والتكنولوجى وأنشاع الفجوة بينه وبين ما حققه الغرب فى الثورة الصناعية الثالثة فى مجال الحاسبات والالكترونات.

غير أن توينبى فى استعراضه للتجارب الروسية فى التحديث والحقاق بالغرب، وفى استعارتها للأساليب الغربية قارن بين محاولة روسيا فى عهد القيصرية، وبين محاولتها فى ظل النظام الشيوعى فيها، وفى هذه المحاولة الأخيرة كانت المرة الأولى التى تستعير فيها روسيا عقيدة أجنبية هى الماركسية والتى هى نتاج للفكر الغربى بينما حين ثبتت روسيا العقيدة المسيحية فلإنها قد جاءت لها لا من الغرب ولكن من بيزنطة حيث تكتسب المسيحية شكلا غير غربى فى الشكل والروح، وفى القرن الخامس عشر فشلت محاولات الغرب لفرض المسيحية الغربية على روسيا.

ويعتقد توينبى أن قصة روسيا فى علاقتها التاريخية مع الغرب هى فى عدة نقاط تكرار لقضية قديمة لعبت فيها الحضارة اليونانية والرومانية دور الحضارة الغربية الحديثة، ولعب فيها الإسلام دور روسيا.

وإذا كانت للشيوعية قد وصفت بأنها هرطقة مسيحية ، فإن نفس هذا الوصف قد انطبق على الإسلام، وقد كسب الإسلام - شأنه شأن الشيوعية، وشق طريقة كبرنامج للإصلاح يعالج سوء الاستخدام فى الممارسة المعاصرة للمسيحية، كما أظهر نجاح الإسلام فى أيامه الأولى كيف يمكن أن يكون نداء الإصلاح قويا حين تكون العقيدة التى يهاجمها هذا النداء مترددة فى إصلاح طرقها وأساليبها ، كما توضح النجاحات العسكرية والسياسية الضخمة فى الفصول الأولى للإسلام لماذا كان الأتراك والقوى الإسلامية الأخرى مترددة فى اتباع سياسة بطرس الأكبر فى الصمود أمام الغرب بتبنى واستخدام الأسلحة والأدوات والمؤسسات والأفكار الغربية، فقد بدأت عملية بطرس الأكبر فى الأخذ بالأساليب التكنولوجية الغربية فى روسيا بعد أقل من مائة عام من رؤية روسيا لعاصمتها وقد احتلها البولنديين عامى ١٦١٠ - ١٦١٢ ، ومن ناحية أخرى مرت مائة عام وأكثر بعد كارثة هزيمة الأتراك على مشارف فيينا عام ١٦٨٣ قبل أن يأخذ سلطان تركيا الخطوة الأولى فى تدريب القوات للتركية وفقا للنموذج الغربى، كما مرت ٢٣٦ عاما قبل أن يدفع رجل دولة تركى بقوة لبناء وطنه لتبنى أسلوب الحياة الغربى وبدون أى تحفظ، غير أنه فى الفصل الأول من قصة تبنى تركيا للأساليب الغربية ، فإنه على

الأتراك الذين كانوا مقتنعين بسياسة تحديث تركيا لم يكونوا - قلبيا - يحبون الحضارة الغربية التي كانوا يدخلونها مجبرين، وكانت نيّتهم تبنى أقل جرعة من هذه الحضارة وبشكل يمكن أن يبقى على رجل أوروبا المريض حيا. مثل هذه الروح المتئثرة تسببت في إجهاض دفعة بعد أخرى من الإصلاحات الغربية، وكان حكم التاريخ على مثل هذه المدرسة الغربية من أنصار التحديث الأتراك هو "فى كل مرة: القليل جدا، والمتأخر جدا" وقد كانت هذه المدرسة تتصور أن بإمكانها جعل تركيا تصمد أمام القوى الغربية لمجرد ارتداء الجنود الأتراك للزى العسكرى الغربى واستخدامهم الأسلحة الغربية، وبمجرد تدريب الضباط الأتراك بالتدريب المهنى الغربى، كل هذا فى نفس الوقت الذى يفتون فيه على كل جوانب الحياة التركية وعلى أسسها الإسلامية التقليدية.

ويواصل توينبى تقييمه لتجربة تركيا فى التعامل مع الغرب وحضارته فيعتبر أن سبب فشل السياسة القائمة على أقل جرعة من الحضارة الغربية، هو أن المصلحين الأتراك قد تعاملوا عن الحقيقة التى لأدركتها عبقرية مصلح آخر هو بطرس الأكبر، هذه الحقيقة، فيما يعتقد توينبى هى أن أية حضارة أو أى أسلوب فى الحياة هو لا لا يتجزأ، وحيث يعتمد فيه كل جزء على الآخر، فسر التفوق الغربى على بقية العالم فى فن الحرب من القرن السابع عشر فطالعا لا يكمن فى مجرد الأسلحة الغربية والتدريب الغربى، كما لا يكمن فى التكنولوجيا المدنية التى تزود المعدات العسكرية، إن هذا المر لا يمكن فهمه دون الأخذ فى الاعتبار كل مقومات الفكر والروح فى المجتمع الغربى، وفى واقع الأمر فإن فن الحرب الغربى كان دائما أحد وجوه طريقة للحياة الغربية ، وعلى هذا فإن المجتمع الأجنبى الذى يحاول أن يحصل ويمتلك هذا الفن دون أن يحيا حياة المجتمع الذى أتتجه، مقضى عليه بالفشل فى التمكن والسيطرة على هذا الفن.

وقد أظهرت التجارب والمحاولات الأولى للتحديث فى تركيا، فى تقدير توينبى، أنه لم يكن أمام الأتراك إلا خيارين، إما أن يدفعوا ثمن السياسة التى تعتمد على أقل جرعة من أساليب الحضارة الغربية ويتركوا أنفسهم فى طريق الانحدار، أو أن ينقنوا أنفسهم من الانقراض بأن يتبنوا عملية التحديث بكل قلوبهم وعقولهم،

وبعد أن وضع الأتراك أنفسهم على حافة الدمار باتباع الاختيار الأول، فقد أنقذوا أنفسهم - وقبل أن يصبح الوقت متأخراً جداً، بالانغماس في طريق التحديث الغربى وبغير حدود تحت قيادة كمال أتاتورك، وكان معنى هذا الاختيار أن "العثمانيين" قد اعترفوا لأنفسهم بحقيقة أنه فى عملية التداخل والاتصال الحضارى فإن جانباً منه لابد أن يودى إلى جانب آخر، وأن تبنى الأسلحة الغربية والتدريب الغربى لابد أن يتبعه ليس فقط تحرير المرأة المسلمة وإنما استبدال اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وفصل الدين عن الدولة فى كل مجالات الحياة. ويواصل توينبى تقييمه لتأثير أخذ أتاتورك بالحضارة الغربية فى مجملها على المجتمع التركى فيقول إنه رغم أن ثمن هذا الاختيار كان أن يخضع الأتراك لنظام فاشى، وأن كان نظام الحزب الواحد الذى طبقه أتاتورك أن يصل إلى التطرف الشمولى - إلا أنه تطور بعد ذلك بشكل مباشر. فى الانتخابات التركية العامة عام ١٩٥٠ تحولت تركيا من نظام الحزب الواحد إلى نظام الحزبين وبالقبول العام وبلا عنف أو أراقة دماء، وقبل الحزب الذى سيطر على الحكم لفترة طويلة لإرادة الناخبين حين أجرى انتخابات حرة وبالاقتراع الحر، ثم بتقبله للنتيجة التصويت المعارض له كإشارة له على أنه لابد أن يعتزل السلطة وأن يدعو المعارضة لكى تحل محل حكومته، كما أظهرت المعارضة من ناحيتها نفس الروح الدستورية.

وفى تقييمه النهائي للتجربة الرومية والتركية فى التعامل مع الحضارة الغربية، ينظر توينبى إلى رجال مثل بطرس الأكبر وكمال أتاتورك على أنهم نمط من الرجال يمتلك الرؤية النادرة التى مكنتهم من أن يدركوا أن المجتمع الذى يتعرض ويخضع لضغوط حضارة متقدمة وعدوانية وأكثر قوة يجب أن يختار ما بين الانقراض أو تملك نفس أسلوب هذه الحضارة الذى يمكنه من الصمود أمامها. ويعتبر توينبى أن هذه الرؤية وهذا الاختيار هو اتجاه إيجابى وبناء ودليل على أن هذا الصنف من القادة هم حقاً رجال دولة، وأن اختيارهم هذا كان انتصاراً على الميول الدليبية التى كانت يمكن أن تعكس استجابة سلبية تجاه ما تمثله الحضارة القوية من أخطار وأن تشبهه فى ذلك استجابة المحارة التى تنطلق على نفسها، أو للسلفاء التى تمسح وتكتمش على غطاها العظمى، أو النعمة التى تخبئ رأسها فى الرمال.



غير أن توينبي يعترف أن سياسة محاربة حضارة غربية وعدوانية بأسلحتها الخاصة سوف تثير شكوكا عميقة لدى العقول المحافظة والتي سوف تتهم رجالا مثل بطرس الأكبر وأنتونوك، بأنهم في سبيل الدفاع عن الحصن وتقوية نفاعته فإنهم في الواقع يبيعونه، بينما كان الرد الصحيح - لدى هذه العقول المحافظة على تطفل الحضارة الغربية - هو التمسك بما طالبنا به الله الذي سوف يمنحنا من قوته الإلهية ما ندافع به ضد أعدائنا الكفار غير المؤمنين.

وفي سياق تتبع توينبي للحضارات ، تطوراتها وتفاعلاتها، والمواجهات بينها خاصة في ضوء ما تطورت إليه من بروز وسيطرة الحضارة الغربية المعاصرة، يمد توينبي بصره إلى ما بعد عدة قرون من الآن كي يتسائل عما سوف يميزه مؤرخو المستقبل ويختاروه باعتباره الحدث البارز لعصرنا الراهن، وحين ينظرون خلفهم للنصف الأول من القرن العشرين ويحاولون رؤية ورصد نشاطاته في نسبها الصحيحة والتي يكشف عنها "بعض الأحيان رؤيتها من منظور زمني أبعد"، ويتخيل توينبي أن مثل هذا الحدث الذي سيتوقف عنده مؤرخو المستقبل لن يكون من بين هذه الأحداث السياسية الاقتصادية المثيرة والمأساوية التي تحتل عناوين الصحف وتشغل تفكيرنا مثل الحروب، أو الثورات أو ما يحدث من مذابح أو مجاعات ، وإنما سيكون ذلك الشيء الذي لا يحوز غالبا على كل وعينا، أو يمكن أن نصنع منه عنوانا للصحف، أو تجذب مظاهره أنظارنا لأنها تقع وتبدو على سطح تيار الحياة، وتعد أنظارنا في نفس الوقت عن التحركات الأبطأ وغير الملموسة والتي تعمل تحت السطح وتتغلغل في الأعماق. غير أن هذه التحركات الأبطأ والأعمق هي في الحقيقة في نهاية الأمر هي التي تصنع التاريخ، وهي التي ستبدو ضخمة حين نستعيدها ونأمل فيها، وحين تكون الأحداث المثيرة والمعبرة قد تضاعلت وابتدت في نسبها الحقيقية. فالنظرة العقلية، مثل النظرة البصرية، سوف تبدو بشكل أعمق إذا ما وضع المراقب مسافة ما بينه وبين هدفه، فحين سافر مثلا إلى الولايات المتحدة من Lackcity إلى دنفر، فإن أفضل منظر لسلسلة الجبال الصخرية فيها أن يكون أقربها إليك، فحين تكون بالفعل فوق هذه الجبال فلن ترى شيئا غير القمم والتلال والأفاويد، ولكن حين تبعد عن الجبال وتتجاوزها وتنتظر إليها من الخلف وأنت طائر فوق السهول، عندئذ فقط تتحقق لك هذه الرؤية الواضحة لسلسلة الصخور ذاتها .

بهذه الرؤية يعتقد توينبى أن مؤرخى المستقبل سيقولون أن الحدث العظيم فى القرن العشرين هو الأثر الذى تركته الحضارة الغربية على كل المجتمعات التى تعيش فى عالم اليوم. وسوف يقولون عن هذا الأثر إنه كان من القوة والانتشار بالدرجة التى حول بها حياة كل ضحاياها من أعلى إلى أسفل، ومن الداخل إلى الخارج، مؤثرا فى السلوك، والنظرة، والمشاعر والعقائد للرجال والنساء والأطفال وبطريقة جميمة، لاسما لوتارا فى الروح البشرية التى تحركها قوى خارجية أيا كان شكلها وطبيعتها، ومع ثقته أن هذا ما سيقوله المؤرخون عن عصرنا حين ينظرون إليه من فترة قريبة نسبيا مثل عام ٢٠٤٧، ولكن ماذا سيقوله المؤرخون عام ٢٠٤٧؟

يعتقد توينبى أن هؤلاء قد يكون لديهم شيئا يقولونه أكثر إثارة للاهتمام من مؤرخى عام ٢٠٤٧ لأنهم فى مثل هذا الوقت سيكونون أكثر علما بتفاصيل وحقائق القصة التى قد تكون نحن اليوم فى فصل مبكر منها.

ويعتقد توينبى أن مؤرخى عام ٣٠٤٧ سيكتبوا مهتمين أساسا بالآثار المضادة Counter effects التى سيكون الضحايا قد تركوها فى حياة المعتدى، فمع عام ٣٠٤٧ فإن الحضارة الغربية كما عرفناها من ١٣٠٠ عاما ومنذ بزوغها منذ عصر الإسلام، قد تكون تحولت، وبشكل يفوق إدراكنا، وبالتأثيرات المضادة من حضارات أخرى ويعنى بها تأثيرات المسيحية الأورثوذكسية، والإسلام، والهندوسية، ومن الشرق الأدنى. ومع عام ٤٠٤٧، فإن الفارق الذى يلوح واسعا اليوم بين الحضارة الغربية، كمعتدى، والحضارات الأخرى لها، ربما تبدو غير ذى أهمية. وحين سيتلو الإشعاع المؤثر من الغرب بإشعاع آخر مضاد، فإن ما سبقى هو خبرة عظيمة مشتركة لكل البشرية، وهى خبرة ستكون أعمق من الميراث الاجتماعى المحدود لحضارة ما وتفككها لأجزاء صغيرة نتيجة لصدامها مع الميراث الاجتماعى المحدود لحضارات أخرى، مثل هذا الصدام هو الذى سينشأ من حطامه حياة جديدة مشتركة.

ويعتبر توينبى إذا ما أخذنا الفترة الزمنية التى مرت حتى الآن للمواجهة بين الحضارة الغربية الحديثة ومعاصريها وبلغت ١٦٠٠ عاما، فقد يقول قائل إن هذه المواجهة قد بدلت بالهجوم العثماني على أراضي الحضارة الغربية وبالرحلات الاستكشافية الغربية الكبيرة فى نهاية القرن ١٥ و ١٦ لعصرنا، الأمر الذى يصنع

أربعة قرون ونصف حتى الوقت الراهن، وحتى لو افترضنا أن عقول وقلوب الناس تتحرك بسرعة أكبر هذه الأيام، فإنه يبدو وكأننا مازلنا فقط في فصل مبكر من قصة مواجهة للحضارة الغربية مع حضارات المكسيك وبيرو والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام والهندوسية والشرق الأقصى، وفي هذه المواجهة بدأت تبدو آثار عمل الحضارة الغربية على هذه الحضارات، أما الأثر المضاد المقابل لهذه الحضارة على الحضارة الغربية، فإنه وإن كنا نراه الآن بصعوبة، إلا أنه حتماً سيكون ضخماً تجاه "التحركات الأولى" أو المؤشرات التي رآها توينبي على الأكثر المضاد المقبل للحضارات الأخرى على الحضارة الغربية، عندما أطلق هذا التصور في نهاية الأربعينيات، رأى توينبي هذا فيما حدث في روسيا بعد الثورة الشيوعية والتي رأى خطورتها وأهميتها ليس فقط في القوة المادية التي بدأت تمتلكها وإنما بما بدأ يظهر بالفعل من قوة وقرة على تحويل عقول وأرواح غربية إلى أيديولوجية غير غربية، حيث تبني الروس فلسفة علمانية اجتماعية غربية وهي الماركسية، والتي قد تدعى عن حق هرطقة مسيحية، وصفحة انزعجت من كتاب المسيحية واعتبرت إنها تمثل وتحتوي الخلاص النهائي، إلا أن الروس قد أخذوا هذه العقيدة الغربية للمنشقة وحولوها إلى شيء خاص بهم وأعدوا إطلاقها إلى الغرب والعالم، وهذا التطور هو الذي دفع توينبي إلى الاعتقاد بأنه يمثل الطلقة الأولى في الهجوم المعادي للمضاد للغرب. ومع هذا فإن هذه الطلقة في تقديره ستكون شيئاً صغيراً جداً أمام التأثير والاستجابة للمضادة التي يمكن أن تكون أكثر قوة وفعالية لحضارات مثل الهند والصين بطريقتها الخاصة على الحضارة الغربية والتي راعى توينبي أن تأثيرها على المدى الطويل قد يفوق تأثير ما تحاوله روسيا بتجربتها الماركسية والشيوعية<sup>(٩)</sup>.

(٩) قد يكون تصور توينبي هذا للأثر المضاد والمقبل للحضارات غير الغربية على الحضارة الغربية والتي تنبأ أنها ستكون أكثر قوة وفعالية من الأثر المضاد للتجربة الروسية وتبنيها للماركسية، هو الأساس الذي بنى عليه وطوره مؤرخ معاصر هو صامويل هنتجتون وصاغ به نظريته عن تصادم الحضارات Clash of civilization، والتي استبدل فيها الماركسية بالإسلام، إلى جانب الحضارة الكونفوشية صانعاً منها ما أسماه :

## حوارات

فى السنوات الأخيرة من عمره، أجرى عددا من المفكرين والكتّاب حوارات مع توينبى شملت نطاقا عريضا من القضايا التاريخية، والفلسفية، والمعاصرة فكانت لجابات توينبى على ما أثاره محلوره بلورة وإعادة تأكيد وتوضيح لفلسفته فى التاريخ والحضارة والشتون البشرية.

وربما كان من أهم الحوارات ، ذلك الذى أجراه معه المفكر اليابانى : Daisaku ikeda والذى لمتد لعدة أيام ، وتلئى قيمته من عدة وجوه، فقد جرى فى نهاية عمر توينبى وقد تبلورت وجهات نظره حول القضايا التاريخية والبشرية، كما قد شمل نطاقا عريضا من هذه القضايا امتدت من اهتمامات الأفراد المباشرة، إلى اهتمامات المجتمعات المعاصرة، فالديمقراطية والتعليم والحروب والتسليح والبيئة، ومدى استجابة البشرية للتحديات التى تولجها مثل الانفجار السكانى، والتلوث، وتضاؤل المصادر الطبيعية والتقدم العلمى، إلى مشكلات دينية مثل الخير والشر والضمير والحب والقيم البشرية العليا. كذلك جاءت قيمة هذا الحوار من أنه جرى بين توينبى ابن الحضارة الغربية ، ومحاوره الذى يمثل إحدى حضارات الشرق الأقصى : حضارتان تختلفان فى منابعهما التاريخية والدينية.

وبالنظر إلى هذا النطاق العريض من القضايا التى شملها هذا الحوار، فسوف نختير من موضوعاته نماذج تتصل أساسا بالاهتمامات البشرية المعاصرة، ورؤية توينبى لها.

وبدأة، وفى حوارهما حول مستقبل البشرية، فقد اتفق توينبى وأكد على أنه فى الفصل التالى من التاريخ، فسوف تتجح البشرية فى التوحد سياسيا وروحيا، وكان اكيدا أكثر أملا من توينبى فى أن هذا التغيير العظيم يمكن أن يتحقق بشكل إرادى وعلى أساس من المساواة بين كل أجزاء الجنس البشرى دون سيطرة جانب منه على الآخر، أما توينبى فقد كان بوجه عام أكثر تشاؤما إذ توقع أن على البشرية أن تدفع ثمنها غالبا فى تحقيق هذا التغيير الكبير فى الأهداف والاتجاه والمساواة، وهو التغيير الذى لا غنى عنه لبقاء البشرية. فهل كان تشاؤم توينبى

يرجع إلى سنه المتقدم حيث يميل المرء إلى الاعتقاد أن العالم يتجه إلى الهلاك، أم لأنه غريب وأنه يشارك - إلى حد ما - أوزوالد سبنلجر اعتقاده - أننا في القرن العشرين نشهد اضمحلال الغرب؟ أم لأنه - كمؤرخ - يعي بوجه خاص - وربما بشكل مسرف - الفضل التراجمي الذي واجهته البشرية من قبل على المستوى السياسي والروحي وهو الفضل الذي يزداد تناقصاته مع الإنجازات المدهشة للبشرية في مجال التكنولوجيا . كذلك ربما كان الاختلاف في التقاليد الدينية بين توينبي ومحاوره الآسيوي والتي تربيا في ظلها مسبب آخر في خوف توينبي من أن الفصل القادم في تاريخ البشرية قد يكون أكثر عنفا ووحشية. فقد نشأ توينبي على المسيحية أما محاوره فهو بوذي. وقد انتشرت كلا من المسيحية والبوذية بشكل واسع ولكن وسائل ونتائج انتشارهما قد اختلفت. فالبوذية - التي انتشرت بالوسائل المسلمية فقط- قد ارتضت أن تتعايش بشكل ودي وسلمي مع الديانات الأخرى والفلسفات التي وجدتتها قائمة بالفعل في المناطق التي نشأت فيها ، فقد أقامت البوذية اتفاقا وتعايشا ودبا مع الديانة التاوية Taoism ومع الكونفوشية في الصين، والشينتو Shimto في اليابان . وعلى النقيض من البوذية، فإن المسيحية تقوم على عقلية مقصورة عليها Exclusive minded وفي عدد من الحالات فرضت المسيحية بالقوة مثلما حدث مع أغلبية السكان في الإمبراطورية الرومانية وعلى شعوب المكسيك وبيرو، ومثل هذا الوعي بهذا الجانب المظلم في تاريخ المسيحية يجعل المسيحي أكثر شكا من البوذي حول إمكانية تحقيق إنجاز اجتماعي عظيم بشكل سلمي.

وقد كان من القضايا التي ناقشها المفكر الياباني مع توينبي هي قضية تأثير الأدب على المجتمع وتقدمه ومدى مساهمته في المشكلات التي قد يواجهها ، وقد طرح اكيدا ملاحظة جان بول سارتر في تساؤله عما يفعله ويقدمه الأدب لمن يعانون من المجاعة، وقد رد توينبي على ذلك بقوله إن الإجابة ستصبح واضحة إذا ما تساءلنا أيضا عما يمكن أن يفعله الباحث العلمي لمن يعانون من المجاعة، إن البحث العلمي لن يستطيع أن يقدم شيئا لهم إذ ما جعل إطعام الجائعين هو هدفه المقصود، وإذا ما اقتصر نشاطه في محاولة تحقيق هذه الرغبة العملية، فالعلم حين يعمل وعلى عينيهِ هذه الغشاوة فسوف يفضل لأنه إذ يجد نفسه بهذه الأهداف

المحدودة فسوف يقصر في تحقيق أهداف اكتشافات علمية جديدة. فالبحث العلمي يقود إلى اكتشافات جديدة فقط حين يُمارس لذاته ولإشباع الشغف والفضول العلمي والفكرى دون أن تسيطر عليه فكرة أو هدفاً نفعياً مسبقاً، وكثير من الاكتشافات هي التي حققها البحث الذي جرى دون دافع اجتماعي أو نفعي، والذي تحول بدون قصد - وعن غير توقع، وبشكل مثير للدهشة، لأن تكون له تطبيقات اجتماعية مقبلة. وقد تأكدت حقيقة هذا التناقض الظاهر دائماً وبشكل مقنع لدرجة أن كثيراً من الشركات الخاصة تقدم منحاً دراسية للعلماء والباحثين وتطلق يدهم في اختيار أي موضوع للبحث بقودهم إليه شغفهم العلمي بدلاً من توجيه بحثهم نحو أهداف معينة قد يكون لها قيمة ومنفعة مباشرة للاهتمامات والمصالح التجارية للشركة. ويعتبر توينبي أن هذه الحقيقة حول العلم تطبق على الأدب، فالأعمال الأدبية الروائية القرن التاسع عشر تولوستوى كان لها تأثير عملي في إيقاف ضمير الأقلية من الأغنياء الأقوياء لكي تعمل - حتى ولو على حساب امتيازاتهم الخاصة - لإصلاح المجتمع بطرق عدة بما فيها إطفاء من يتعرضون للجوع. ويفصل توينبي اتجاه تولوستوى نحو قضايا الحياة والبشر والمجتمع بأنه مر بمرحلتين، وقد انعكس موقفه واتجاهه في أعماله خلال كل مرحلة، ففي المرحلة التي سبقت تحوله الروحي والاجتماعي، كتب تولوستوى بشكل ثقلاني وببساطة لكي يشبع رغبته في خلق عمل أدبي، أما بعد تحوله فقد اعتقد أن ممارسة الأدب للأدب ذاته هو لون من ألوان الانغماس الذاتي Self indulgence، ولا يعبر عن مسؤولية اجتماعية، وأن على الفنان أن يكرس بشكل متعمد عبقريته من أجل رفاهية البشرية، ولهذا كانت أعمال تولوستوى بعد مرحلة تحوله الفكرى موجهة نحو هذه الغاية المحدودة وما تستهدف من أهداف غيرية. ولم تكن أعماله خلال مرحلة إيداعه الأولى متفوقة فقط بالمعايير الفنية والأدبية المحضة، ولكنها كانت أيضاً أكثر تأثيراً على المستوى الاجتماعي من أعماله بعد تحوله للفكرى والتي كانت تستهدف بشكل متعمد تحقيق نتائج اجتماعية. لقد كانت أعماله الأدبية الأولى تحرك من يقرأها بجدارته الأدبية ولذلك كانت تلهمهم وتدفعهم لكي يحاولوا إصلاح المجتمع وفقاً لخطوط ضمنها رواياته ولكنها لم تكن الهدف المباشر لكتابتها. وقد بنى للنظام الشيوعي في الاتحاد

السوفيتي وجهة نظر تولوستوى بعد مرحلة تحوله حول وظيفة الأدب ، واعتبرت الحكومة السوفيتية أن العمل الأدبي يجب أن يوجه مباشرة لخدمة أهداف أيديولوجية واجتماعية، وكان نتيجة ذلك تدهور ملحوظ فى كل من قيمة الأدب وأثره الاجتماعى، ففى ظل النظام الشيوعى أصيب الأدباء الروس الذين تبناوا الخط الرسمى بالعقم، أما هؤلاء الذين كتبوا بشكل تلقائى وكما حركتهم رؤيتهم الخلاقة، فقد اعتكفوا، وأصيبوا بالإحباط حتى ولو لم يتعرضوا لاضطهاد واضح.

ورغم اعتقاد توينبى أن الفن الحقيقى من أجل الفن فى ذاته هو فن من أجل الحياة أيضاً، إلا أنه يعتقد كذلك أن الفن يصيب نفسه بالعقم إذا حول الفنان نفسه إلى مجرد متخصص مهنى يكتب فى المقام الأول وبشكل متخصص فقط لزملائه المتخصصين بدلا من أن يكتب لزملائه من البشر، وهو لا يرى أن هذا فن من أجل الفن وإنما من أجل من يمارسه وهو ما يمثل وجهة نظر زائفة حتى بالنسبة لمصلحة من يمارس الفن نفسه، ولذلك فإنه يعتقد أنه من سوء الحظ ومن أعراض المرض الاجتماعى أن يصبح الأدب، أو العلم، أو العمل الأكاديمى، قاصرا على فئة قليلة، فالأدب يجب أن يولج شروخ وصعاب الحياة دون أن يئس من قدرة الطبيعة البشرية على أن تستجيب بقوة ونجاح لتحديات الحياة ، فعند توينبى أننا يجب أن نناضل لكى نكسب معركة الحياة ورغم أننا لا نملك ضمانا لذلك.

وردا على ما أثاره محاوره من أن عيدا من الحضارات قد أبقت على التمييز والفوارق بين المتقنين والجهالين، الأمر الذى يجب أن تنبذ الحضارة المعاصرة، عقب توينبى بأنه يعتقد أن من أعراض المرض الاجتماعى أن يكون المجتمع مقسما إلى متقنين وجاهلين، وحين يشعر كل جانب أن الجانب الآخر بعيد وغريب عنه، فقد عانت روسيا من هذا المرض الاجتماعى بعد عملية التحديث والتفريب المفاجيء والسريع والمفروض من أعلى التى قام بها بطرس الأكبر، وكانت الإنجليز الروسى هى من خلق هذه العملية ، غير أن هذا لم يحقق السعادة لهذه الطبقة حيث إن تحولهم إلى نظام الحياة الغربى قد فصلهم عن مواطنيهم الروس دون أن يجعلهم يشعرون تملكا بالألفة مع الغرب. وفى القرن ١٩ عاش العديد منهم فى البلدان الغربية بعضهم بشكل إرادى وبعضهم كلاجئين

سياسيين، ذلك أن تعليمهم الغربى قد باعد بينهم وبين النظام الأوتوقراطى الروسى، وهو نفس النظام الذى كان سبب وجودهم. وقد كانت الروايات الروسية العظيمة فى القرن التاسع عشر نتاجا للعقيدة الروسية التى ألهمتها الوعكة التى ألمت بالانثينجسيا، وثمة مشهد مضىء فى رواية أنا كارنينا لتولستوى يدعو فيه ليوفين، الوحيد من ملاك الأرض الذين تحولوا بالليبرالية الغربية، عبيده ويعرض عليهم أن يعطيهم نصيبا من أرضه، وقد بدا فلاحية للعبيد فى شك وحيرة من هذا العرض، فهم لم يفهموا دوافع سادتهم، ولم يعتقدوا فى خلاصهم، الأمر الذى أثار غضب السادة ومخطهم، وهكذا لم تحقق هذه المواجهة نتائج إيجابية. وقد صنعت الانثينجسيا الروسية ثورة عام ١٩١٧، وقد كان بعض أعضائها قد قضى سنوات عديدة فى المنفى فى الغرب وكان برنامجهم هو إصلاح روسيا وطريقها فى الحياة، وفقا لما يسمى بالأساليب الغربية المتقدمة، وحين جاءوا إلى السلطة تكررت مشاهد مثل التى ظهرت فى أنا كارنينا بين الملاك - والعبيد على نطاق واسع فى واقع الحياة، وقد أساء كل من الانثينجسيا الروسية والجماهير الروسية فهم بعضهم البعض، ومنذ أن استولت الانثينجسيا الروسية على السلطة فرضوا على الشعب الروسى الأيديولوجية الغربية عنه بالقوة وبنفس الطريقة التى تتبعها النظام الأوتوقراطى الذى أطاحت به الانثينجسيا كرسول للتغيير والتطوير الغربى. ويستطرد توينبى فى شرح العلاقة بين الفئات والطبقة المتقنة والجماهير فيقول أن حين تصبح فئة المتقنين بعيدة وغريبة عن الجماهير، فإنها نتجه إلى أن تفقد الصلة مع واقع الحياة البشرية، بينما تميل الجماهير إلى التجرد من الحضارة الثقافية التى يجب أن تصل إلى كل كائن بشرى، بينما بكل طاقته على ذلك وفى العالم الغربى اليوم، ثمة اتجاه يوحى لدى المتقنين بأن يشكلوا دوائر مغلقة من المتخصصين المهنيين الذين يعيشون ويعملون بشكل قاصر عليهم فقط. ويحتقر المتقنون الجمهور لكرنه جاهلا وغير متخصص، أما للجمهور فهو يتجاهل المتقنين لأنه يجدهم غير واضحين وغير عمليين، ومثل هذه العلاقة والاغتراب بين المتقنين والجمهور أمر سيء لكل منهما وسيء بالنسبة للمجتمع فى مجموعه.

واتصالا بطبيعة وميول المتقنين بأسف توينبى ولا يوافق على التخصص المبالغ فيه، ذلك أن هذا يزيد من غربتهم عن الجمهور ويبعد المتقنين عن المجتمع.



فالتخصص يميل إلى أن يحتقر الرجل العادى غير المتخصص، وغير المتخصصين يميلون باستبعاد المتخصصين باعتبارهم غير مفيدى، لمن يقيم خارج نطاق تخصصهم وزمرتهم الطبقية.. ويقول توينبى إنه شخصيا يعتقد أن غير المتخصصين على صواب فالتخصص له وجهة نظر مشوهة حتى فى نطاق وفعل تخصصه إذا ما مارسه فى عزلة عن الناس وعن بيئته ومحيطه، كما أن التخصص أصبح أسلوبا سينا لمحاولة فهم والتعامل مع العالم الحديث لأن كل المجتمعات وكل جوانب الحياة، وكل ألوان النشاط أصبحت متداخلة بشكل متزايد ويعتمد بعضها على البعض فنحن نعيش فى عالم نحتاج فيه أن نمثلك النظرة الشاملة والعالمية.

ولكى يصبح الإنسان مثقفا يتطلب فى نظر توينبى ثلاثة أمور : المقدرة الثقافية والفكرية، والموهبة الطبيعية، وهى موزعة بشكل غير متساوى جدا، والارادة على العمل الشاق والتصرف بشكل سليم. فيعتقد توينبى أن المثقف والمجتمع لهما للالتزامات أخلاقية متبادلة Mutual Morale obligation فالمثقف مدين لمجتمعه بأن يقوم بخدمة اجتماعية مفيدة مقابل ما استثمره المجتمع فى تعليمه، وفى المقابل على المجتمع أن يكافئ المثقف بشكل كافى لتمكينه من أداء عمله بشكل كفاء، على افتراض أن هذا العمل ذو قيمة اجتماعية.

غير أن توينبى فى تصوره للمثقف يعتقد أنه وقبل كل شىء فإنه من المستحيل أن يكون مثقفا أو فنانا دون أن يكون إنسانا أولا، فالإنسان حيوان اجتماعى تتداخل بشكل معقد فيه مشكلات الحياة البشرية سواء تلك الخاصة بعصره وبيئته أو ذات الصفة العالمية والدائمة. والمثقف أو الفنان الذى يتجاهل المشكلات العالمية إنما يسفه نفسه، ذلك أنه يتجاهله لهذه المشكلات وتعاميه عنها سوف يفقد ما يلهمه، ومن ثم لن يكون هو نفسه أو ما يصدر عنه ملهما. لقد شهد التاريخ مفكرين وفنانين عظم ركزوا طاقاتهم على المشكلات الكونية والدائمة ولكنهم لم يتجاوزوا مع مشكلات زمانهم ومكانهم، فلم يكن أفلاطون يشعر روحيا أنه فى وطنه أثينا، ولم يشارك جوته سياميا أو حتى عاطفيا فى المواجهة بين إلمانيا و نابليون رغم أنه كان على وعى بأن هذه المواجهة كانت نقطة تحول فى تاريخ بلاده، وعلى التقيض المتطرف، كان ماركس ولينين منغمسين فى مشكلات زمانهم لدرجة

أن ماركس قد حول فلسفته إلى برنامج للعمل السياسي وواصل لينين برنامج ماركس في روسيا، بالاستيلاء على السلطة واستخدامها في صنع الثورة الروسية.

ويوافق توينبي على أن العلاقة الصحيحة والصحية للمثقف أو الفنان مع مشكلات زمانه ومكانه هي الطريق الوسط، فيجب أن لا ينأى بنفسه تماماً أو يتباعد عن هذه المشكلات الرئيسية، كما أنه يجب أن لا يكون منغمساً كلية فيها. وكمثال على رجال الأدب الذين اهتموا إلى هذا الطريق الوسط يشير توينبي إلى شخصيات القرن ١٩ من الروائيين الروس: تورجيليف، ودوستويفسكي، وتولستوى. وكأمثلة على الفلاسفة الذين وجدوا هذا الطريق الوسط وسلوكه يشير إلى زينو Zino مؤسس المدرسة الرواقية، وأبيقور Epicurus وهما الفيلسوفان اللذان عاشا في جبل لم تعد فيه المدينة City Sate تقدم إطاراً اجتماعياً وأخلاقياً مشبعاً للحياة اليونانية، الأمر الذي وجد اليونانيون أنفسهم موجهون روحياً بشكل خاطئ، ولذلك فقد صاغ الفيلسوفان لمعاصريهم اتجاهات جديدة ضمنت استمرار الحياة اليونانية بعد أن اتهار نظام المدينة Citystare الذي كان يشكل المؤسسة الرئيسية والتقليدية لليونانيين.

ويخلص توينبي في رؤيته لطبيعة ودور المثقف ووضعه في مجتمعه إلى أن قاعدة السلوك الفرنسي : Nobless Oblige هي قاعدة صالحة لسلوك المثقفين إذا ما ترجمنا عبارة Nobless بأنها تعنى لا النبالة الأرستوقراطية الموروثة وإنما الالتزام الأخلاقي الكامن في الكائن البشري. وقد كان سقراط، مثل تلميذه الأرستقراطي أفلاطون، مشغولاً أساساً بالمشكلات الكونية الدائمة، ولكنه - على عكس أفلاطون - اشترك أيضاً في الحياة السياسية لمدينته أثينا. ورغم أن سقراط لم يخرج عن طريقه لكي يتدخل في السياسة المثيرة للجدل والخلاف، إلا أنه لم يتردد في أن يفعل ذلك إذا ما وجد أن هذا العمل جزءاً من واجبه المدني. وقد صوّت مرة في الجمعية الوطنية الأثينية ضد مشروع يحوز على التأييد الشعبي ولكنه كان خاطئاً أخلاقياً، وقد قبل أن يحكم عليه بالموت حتى لا يقول شيئاً ضد ما يعتقد، وأن يعترف بأن ما يُدرّسه للتلاميذ مفسد لهم أخلاقياً، وبعد أن أُدين رفض أن يستغل فرصة للهرب إلى مكان يلجأ إليه في الخارج، وهكذا كان ما اتخذ -

سقراط من مواقف وسط بين عدم الانغماس في العمل السياسي، وعدم التهرب منه هو في نظر توينبي السلوك القويم الذي يجب أن يسلكه المثقف أو الفنان.

ويطرح اكيدا على توينبي عددا من الأسئلة والملاحظات المتصلة بالنظام الديمقراطي، جوانبه الإيجابية وكذلك ثغراته ونقاط الضعف فيه، والشخصيات التي يفرزها النظام الانتخابي والحزبي، ثم طبيعة وخصائص القيادة في ظل النظام الديمقراطي.

ويعتق توينبي على هذه الملاحظات بأن للقيادة في ظل النظام الديمقراطي هو عمل أدق وأصعب من القيادة في النظم والمؤسسات الديكتاتورية القائمة على الجاذبية الشخصية للقائد. فالقائد في النظم الديكتاتورية يحصل على طاعة رعاياه جزئيا بالقوة، وجزئيا بإثارة العواطف غير العقلانية، أما في ظل النظام الديمقراطي فإن على القائد أن يحصل على تعاون مواطنيه بإقناعهم بشكل وعلى أسس عقلانية أن السياسات التي يقترحها عليهم سليمة، كما أن عليه أن يدير هذا الحوار بعيدا عن العاطفة. وإذا أريد للنظام الديمقراطي أن يعمل بشكل مرضي فإنه يحتاج لقائد لا يتحايى على شعبه أو يتعامل ويخاطبهم بشكل ديماجوجي، وإنما يحتاج لشخص يمتلك هذه القيمة الأخلاقية والثقافية والفكرية التي تجعل مواطنيه يتبعون قيادته، ولكن دون إكراه أو إشارة عاطفية، مثل هذا القائد قد يكون من الصعب توفره، وإذا ما وجد فقد يتردد في أن يقوم بهذه المهمة الصعبة في توجيه مواطنيه، التي قد لا ينال في النهاية الشكر عليها. ومن الواضح أن دور القائد له أهمية اجتماعية بالغة وللقيام بهذا الدور، وبدوافع غير أنانية أو شخصية، يتطلب درجة عالية جدا من الروح العامة. والقائد الديمقراطي عليه أن يسلك طريقا وسطا بين بديلين غير مرغوبين، وفرصته في المناورة بينهما ضئيلة، فمن ناحية، فهو قد يتعرض للإغراء وينساق لرغبات أبناء دائرته حتى لو كان يرى أن هذه الرغبات خاطئة وموجهة بشكل خاطئ، فإذا ما فعل ذلك، فيكون قد تنازل تقريبا عن دوره في القيادة وخان الثقة فيه، أما البديل الآخر غير المقبول فهو أن يخدع ناخبيه ويحملهم على التصويت لمسياسة يعتقد في صحتها ولكنهم كانوا سيرفضونها إذا ما شرحت لهم بشكل صريح، وفي هذا أيضا خيانة للثقة فيه، وزيادة على ذلك، فإن خدعته من المحتمل أن تتكشف عاجلاً أو آجلاً وعندئذ سوف تنهش سمعته وتضعف

الثقة فيه. وفي الدول غير الديمقراطية والتي يحكم فيها القادة بممارسة القوة وإثارة المشاعر فإن الشخصيات المتطرفة التي تستولى وتسيطر عليها أفكارها ومبادئها مثل رويسبير ولينين هم في بعض الأحيان أكثر خطورة ومجربة للكارثة من الشخصيات التي تدرجت في الحياة السياسية ومناصبها وتميزت بالدهاء واللباقة والحسابات البعيدة عن العاطفة مثل الإمبراطور الصيني هان ليوبانج Hanliu Pang والإمبراطور الروماني أوغسطس Augustus والخليفة العربي معاوية، وكلا منهم تولى السلطة في إمبراطورية حلت عليها كارثة وفشلت نتيجة عدم كياسة قادة سابقين، وقد نجحوا بما تمتعوا به من لباقة اجتماعية في إعادة تأسيس نظام إمبراطوري منهار ووضعه على أسس تضمن له الثبات والاستمرار . وقد لا يكون ما أظهره هؤلاء للقادة من لباقة موضع إعجاب أخلاقي ولكنها في الظروف التي ولجوها، كانت ضرورة سياسية. ويلخص توينبي رأيه في القائد وفي النظام وكيف يعمل بكفاءة بالغة بقوله إنه لا يعتقد أن أي نظام من أي لون يمكن أن يعمل بنجاح بواسطة قائد ذو قدرة متواضعة Mediocre.

ويناقش توينبي الرأي القائل بأن الديمقراطية والتي تعتمد على الانتخابات إنما تبرز قادة وشخصيات قد لا تتميز بالضرورة بكفاءتها وقدرتها وثقافتها وإنما بمقدار قدرتها على جاذبيتها للجماهير وللتلاعب بمشاعرها وعواطفها في الوقت الذي تتجاهل فيه الجماهير شخصيات وقادة قادرين على الخدمة العامة وحريصين على ذلك، ولكنهم فقراء في القدرة على الإعلان عن أنفسهم. بل إنه في بعض الأحيان كلن الجمهور قد يستخدم النظام الديمقراطي كي ينتخب رجلا يرضه في السلطة الكاملة تقريباً وينتهي به الأمر أن يدمر للديمقراطية وينصب نفسه كديكتاتور، ويؤمن توينبي على هذه المخاوف ويعتبر أن الخطر الدائم هو في صعوبة انتخاب شخصيات عامة جديرة حقاً بالمنصب، فالحكومات للديمقراطية تفرغ ساسة عادة ما يجعلون من السياسة حياتهم ويحترفون فن حث إقناع الناخبين على وضعهم في السلطة وإقناعهم فيها وممارسة هذا الفن يمكن السياسيين من كسب الانتخابات ولكن لا يمكنهم من كسب احترام الناخبين وخاصة على المدى الطويل، فرغم انتخاب الناخبين لهم إلا أنهم يحترقونهم. وتشويه سمعة السياسيين يعني في النهاية تشويه سمعة وإضعاف للنظام السياسي للمستوى الذي يمكن العاسة - من

خلال خطأ الناخبين - من أن ينتخبوا لمناصب هم غير جديرين بها. وقد اتسعت حديثا الفجوة بين ادعاءات السياسيين وبين أدائهم الحقيقي، فقد أدرك الرأي العام لا أخلاقية وعدم كفاءة السياسيين وإن كان لم يجد بديلا لهم أكثر احتراما وأكثر كفاءة لانتخابهم. وهذا الإدراك من جانب الناخبين لحقيقة الساسة وتبديد الوهم حولهم من ناحية والفضل من ناحية أخرى فى ترجمة هذا الإدراك إلى إصلاح حقيقى، إنما يضع الديمقراطية موضع الشك والعجز.

ويرجع توينبى هذا التهديد الذى تتعرض له الديمقراطية إلى التزايد لتضخم الإعداد والأحجام والذى يراه نتيجة لسببين : الانفجار السكاني، وتزايد نطاق عمليات وحجم إنتاج التكنولوجيا ، فالإنسان يشعر الآن بأنه قزم أمام بيئته سواء كانت بيئته الاجتماعية أم المادية والمصطنعة والتي فرضت على البيئة الطبيعية، نتيجة للانتصارات للضخمة والتكنولوجيا، فبيئة الإنسان الاجتماعية قد تجردت اليوم بشكل محزن وكثير من طابعها الشخصى، كما أن بيئته المادية أصبحت ضخمة بشكل ساحر. مثل هذه الخبرة تمتص قدرة الإنسان إلى الاعتقاد بأن بإمكانه أن يكون مسئولاً بشكل فعال ومشاركاً فى مجتمعه، وهذا الشكل يقلل من احترامه لنفسه، ويخفض من معايير الأخلاقية، لذلك يرى توينبى أنه قد أصبح من الأهمية البالغة تمكين الفرد من أن يستمر فى أن يكون فعالاً فى الحياة الاجتماعية، وحتى يصبح هذا ممكناً يجب إقناع الفرد بأن المؤسسات الحالية تقدم له الفرصة كي يكون فعالاً، ولكي تقنعه بذلك يجب أن تجعل مؤسساتنا حقيقية وقائمة على أساس المشاركة، وربما كان خلق مثل هذه المؤسسات أمراً صعباً، ولكن لا يجب أن تخضع للاستسلام وأساليبه التي تتلو ذلك.

ويفصح توينبى عن عيوب وثغرات أكثر فى الديمقراطية ومناقشتها فى الإطار العام للنظم السياسية التي نشأت وعرفت حتى الآن ، والتي فى ضوءها يعتبر أنه رغم أن الإنسان قد أثبت أنه ذو قدرة خلاقية وقوية ومدمجة فى مجال التكنولوجيا، إلا أنه أقل خصوصية فى نظمه السياسية. فقد تعددت النظم السياسية البديلة التي اكتشفت حتى الآن، ومعظم هذه النظم حين طبقت أثبتت التجربة أنها غير مرضية، وإذا أردنا أن نحكم على النظم الديمقراطية فى نطاق هذه النظم

فإنما يجب أن يفعل هذا في ضوء سلبى : إن الديمقراطية هي أقل للنظم السياسية التى عرفها الإنسان سوءاً، نجد أن هذا لا يلقى عن الديمقراطية عيوبها وثغراتها، وأحد أخطر هذه الثغرات هو ميل الناس فى ظل النظم الديمقراطية الزمانية إلى إعطاء الأولوية فى ولائهم إلى مجموعة صغيرة وأقل أهمية بدلاً من منح هذا الولاء إلى المجتمع الواسع والأكثر أهمية ، ويعنى توينبى بهذا أن الكثرين يفضلون مصلحة الحزب السياسى عن مصلحة الأمة ويضعون مصالح الأمة فوق مصالح البشرية، أما الثغرة الخطيرة الثانية فى الديمقراطية فهي غياب الجانب الخلقى ، فأحياناً يمارس على السياسيين الضغط لجعلهم يتبعون خط الحزب حتى لو كان هذا الخط ضد ضمائرهم، وهناك من الساسة من هم مستعدون تماماً للتضحية بضميرهم من أجل الطموح الشخصى وعلى نطاق واسع، ولتأييد سياسات لا يؤمنون بها فى الحقيقة من أجل الغايات السياسية.

فى ضوء هذه المطالب فى النظام والتجربة الديمقراطية، كما طبقت حتى الآن، يعتقد توينبى أن أفضل جهاز للحكم هو ذلك الذى يقوم على الجدارة والاستحقاق Meritocracy غير أن مثل هذا الجهاز القائم على الجدارة، والمختار بشكل متميز يجب أن لا يعفى من الإشراف الشعبى طالما أن أكثر البشر قدرة وامتلاكاً للروح والضمير العام ما زالوا معرضين للضعف البشرى، وطالما أن السلطة فى ذاتها مفسدة، وكما أن مثل هذا الجهاز القائم على الجدارة الشخصية يجب أن يختار بالانتخاب العام، ذلك أن من أكبر ملامح الديمقراطية سواء المباشرة أو التمثيلية أن الساسة الديمقراطيين يجعلون من انتخابهم وإعادة انتخابهم أولويتهم الأولى ويتصرفون دائماً وعيونهم على هذا الهدف ويدافع منه أكثر مما يعتقدون أنه حق فى الصالح العام، لذلك فإن توينبى يؤيد الاحتفاظ بدستور ديمقراطى وتمثيلى لاختيار الجهاز الذى سيمارس الإشراف الشعبى على الحكومة، ولكنه يستبعد الانتخاب كمنهج لاختبار العناصر التى ستحكم عن طريق الجدارة والاستحقاق، ويود أن يرى هذا الجهاز الحاكم يتم اختياره جزئياً بواسطة الاختيار المشترك. وجزئياً بالترشيح من جانب مؤسسات هامة ومحترمة اجتماعياً وثقافياً غير سياسية واقتصادية.

غير أن توينبي في النهاية يعتبر أن أكثر الأساليب فعالية للتعامل مع ثغرات الديمقراطية هي رفع القدرة والمستوى الثقافي والأخلاقي للجماهير، وإن كان يرى أن عامل الوقت يعمل ضد ذلك، فالتغيرات التكنولوجية المتسارعة قد أدت بالتالي إلى تغيرات اجتماعية وسياسية سريعة، وقد تفاجأ الجماهير وتؤخذ على غرة بكارثة تقع قبل أن يكون لديها الوقت للحصول على المستوى الثقافي والأخلاقي الذي يمكنها من أن ترتفع بالمسياسة فوق مستوى الخطر.

ويرى توينبي أن النظام الذي يقترحه يقوم على الجدارة والاستحقاق، ورغم أنه كان ناجحاً في مجموعته في بعض الحالات كما حدث في الهند والصين، إلا أنه قد اكتشف أيضاً، ولقد حقق أن كل أنواع السلطة مفسدة، وأن السلطة المطلقة تصد بشكل مطلق حسب تعبير اللورد إنتوني، فنظام الحكم القائم على جدارة قد يفعل ما يعتقد بأمانة أنه في صالح الجماهير، غير أنه قد يغفل هذه المصالح بانعزاله عند الجماهير أو بالرغبة الباطنة في أمر يبدو باستمرار وكأنه لا يمكن الاستغناء عنه، وعلى هذا فإن توينبي، مثلاً يرى من عناصر الضعف في النظام الديمقراطي البرلمان القائم على الانتخاب العام، يراها أيضاً في النظام الذي يقترحه، الأمر الذي يجعله ينتهي بصورة متشائمة وبالتخوف من أن البشرية بسجلها الماضي السيء في السياسة ونظمها السياسية، فإن نظمها قد تكون أكثر سوءاً في المستقبل.

في الحوار حول مستقبل العالم والقوى الرئيسية فيه أعطى توينبي أهمية كبيرة لما يمكن أن تساهم به شرق آسيا، وركز بوجه خاص على كل من الصين واليابان، وقد عبر عن اعتقاده أن شرق آسيا تحتفظ برصيد تاريخي ضخم يمكن أن يجعل منها المحور الجغرافي والثقافي لتوحيد العالم<sup>(\*)</sup>. وقد حدد توينبي هذا الرصيد في:

١- خبرة الشعب الصيني خلال الواحد وعشرين قرناً الأخيرة في الإبقاء على إمبراطورية كنودج إقليمي لدولة عالمية بالمعنى الخدمي لذلك.

(\*) تشير خبرة العقدين السابقين إلى صحة نظر توينبي من حيث ما بلغت الصين واليابان، فضلاً عن منطقة شرق آسيا، من مكانة في موازين القوى وترسيخها لأن تكون في صدارة القوى العظمى في القرن الواحد والعشرين.

٢- الروح العالمية Ecumenical التي نشرها الشعب الصينى طوال هذا الفصل الطويل من التاريخ الصينى.

٣- الطابع الإنسانى الذى تتميز به الفلسفة الكونفوشوسية.

٤- الطابع العقلانى الذى تتميز به كلا من الفلسفة الكونفوشوسية والبودية.

٥- الإحساس بما سينطوى عليه العالم من سر لا يدرك إدراكا كاملاً، وإدراك أن المحاولات البشرية للسيطرة على الكون ليست إلا هزيمة للذات، ومثل هذا الأمر هو أئمن ما توصلت إليه الفلسفة التاوية من خلال الحس.

٦- الاعتقاد بأنه أهم من محاولة السيطرة على الطبيعة البشرية ، فإن هدف الإنسان يجب أن يكون هو العيش فى تناسق معها، وهو الإدراك الذى تشارك فيه البوذية وفلسفة الشينتو Shinto للفلسفة الصينية بكل مدارسها.

٧- ما أثبتته الشعب اليابانى من أنه من الممكن لشعوب شرق آسيا هزيمة الشعوب الغربية فى لعبتهم الحديثة بتطبيق العلم على كل من التكنولوجيا المدنية والعسكرية.

٨- الشجاعة التى أظهرها كلا من اليابانيين والفييتناميين فى الجراء على تحدى الغرب، وهى الشجاعة التى يعتقد توينبى أنها سوف تستمر، ولكنها سوف تركز فى الفصل التالى من تاريخ البشرية فى المشروع البناء لمساعدة البشرية فى وضع أمورها سليماً فى الوضع الصحيح.

ويستشهد توينبى حول تطور الدور الذى يمكن أن تلعبه الصين بأنها قد ظلت موحدة سياسياً وتدار وتحكم بشكل فعال معظم الوقت منذ توحيدها السياسى عام ٢٢١ بعد الميلاد، وأنها لم تنتكس إلى الفوضى السياسية إلا بشكل مؤقت ومن وقت لآخر، وأن لتاريخ الصينى كان فى مجموعه هو تاريخ الإمبراطورية الصينية الموجودة والى مازالت باقية وقائمة فى صورة جمهورية الصين الشعبية كقصة نجاح سياسى. وهى فى ذلك تتناقض بشكل حاد مع تاريخ الإمبراطورية الرومانية التى حاولت وفشلت فى أن تقيم وحدة سياسية دائمة للغرب.



هذه القراءة للتاريخ الصينى هى التى تجعل توينبى يقول إنه من المتصور أن من يوحد العالم فى المستقبل إن يكون قوة أو دولة غربية أو حتى دولة تتبنى وتأخذ بالأساليب الغربية كلية Westernised وإنما ستكون الصين، بل إنه يرجع هذه المكانة المدهشة التى تتمتع بها الصين فى العالم اليوم إلى هذا التصور وربما الخوف من الصين ودورها فى المستقبل.

أما اليابان فإن توينبى ينظر إليها ويطلق أهمية على دورها ومكانتها فى المستقبل، باعتبار إنها كانت أكثر القوى غير الأوروبية نجاحاً فى التعامل مع المسألة الغربية، فقد كانت أكثر نجاحاً من الروم ومن الصينيين والهنود والمسلمين، وفى تجربتها مع الغرب فقد جربت اليابان ٤ طرق مختلفة، فى القرن السادس عشر. لقد اليابانيون بشكل غير نقدى الحضارة الأوروبية، إلا أنهم حين تعرفوا على الغرب عن قرب عكسوا سياستهم تلك، بل وذهبوا إلى آساف بعيدة فى العمل على عزل أنفسهم عن الغرب وحضارته. ولكن حين أدركوا أن سياسة الغرب هذه ليست عملية، صنعوا حركة الإصلاح The Meji Restoration وحاولوا تجربة أن يعيشوا فى وقت واحد ولأهداف مختلفة، فى عالمين، فى العالم الحضرى الحديث من أجل للحاق بالتكنولوجيا والاقتصاد والعلاقات الدولية والتجارية والدبلوماسية والحرب، وفى العالم اليابانى التقليدى من الجانب الثقافى والروحى للحياة الدخلية. نجد أن هذه المحاولة الثالثة فى التعامل مع الحضارة الغربية انتهت بكارثة لليابان عام ١٩٤٥، ومنذ ذلك، والشعب اليابانى يخوض تجربة رابعة، وقوام هذه التجربة هو تعويض الهزيمة العسكرية فى الحرب الثانية بضرب الغرب فى المجال غير العسكرى.

وفى مجال التكنولوجيا الذى برع الغرب فيه فقد نجح اليابانيون فى هذا بشكل مثير، ورغم هذا فالتكنولوجيا فيما يعتقد توينبى ليست إلا واحداً من شئون البشر، وليست أكثرها أهمية، فالجانب الروحى للكائن أكثر أهمية من الجانب المادى فيه، ولأن هذا أيضاً اعتقاد الشعب اليابانى، فإنهم يسألون أنفسهم اليوم: هل ركزنا جهودنا واهتمامنا فقط على الجانب التكنولوجى وبشكل أهملنا معه الجانب الروحى؟ وهل كان انتصارنا بعد الحرب مليئاً بالثغرات؟ وهل كان انتصارنا بعد الحرب مليئاً بالثغرات؟

انتصارنا التكنولوجى بنصر روى مواز؟ فإن لم تكن قد فعلنا ألا يجب أن يكون هذا هو هدفنا الأساسى اليوم، وإذا كان الأمر كذلك ما هو الدور الروحى لليابان فى عالم اليوم؟

ويعتبر توينبى أن اليابانيين وحدهم هم القادرون على الإجابة على هذه الأسئلة، ذلك أنه من المخاطرة أن يحاول الأجنبى ذلك حتى ولو كان يحمل الإحترام والعاطفة للشعب اليابانى، ومع هذا فإن توينبى بخاطر بتقديم ما يسميه اقتراحا، فيقول إن اليابانيين قد أثبتوا الآن قدرتهم على التفوق فى التكنولوجيا الحديثة، إلا أنه من الثابت أنه فى كل مكان تخرج هذه التكنولوجيا عن نطاق السيطرة، وفى عملية إنتاج للثروة المادية وهى العملية التى نتج عنها تلوثا روحيا ماديا، الأمر الذى يفرض على البشرية أن تضع التكنولوجيا الحديثة فى مكانها الصحيح لا بمعنى التقليل من إنجازاتها وإنما أن تكبحها، وهو ما يعنى كبح الجشع البشرى الذى هو أقدم بكثير من التكنولوجيا، فهو قديم قدم الحياة نفسها، ويعتقد توينبى أن اليابانيين مؤهلين لهذه المهمة، فهم يمتلكون المصادر الروحية اللازمة لذلك، فديانات وفلسفات أسلافهم: الشينتو والبوذية، تدعوان لالتزام الإنسان الأخلاقى بالتعاون مع الطبيعة لخير البشرية، ومما يجعل هذه المهمة أكثر إلحاحا اليوم أن الطريق الغربى فى اعتقاد توينبى يتجه بالعالم إلى الكارثة بينما يستطيع الشعب اليابانى أن يقود العالم عبر طريق أكثر أمانا ومساعدة، فقد تمكن اليابانيون وسيطروا على التكنولوجيا الغربية دون أن يفسدوا تقاليدهم الروحية الخاصة، وهى التقاليد التى تقدم للتربىات الروحية الصحيح للتوث الروحى الذى أحدثته التكنولوجيا الحديثة وتجريدها للحياة البشرية من إنسانيتها، فالتقاليد اليابانية تدافع عن الطبيعة غير البشرية مثلما تدافع عن كرامة الإنسان.

وحين طرح المفكر اليابانى أمام توينبى النظريتين المتعارضتين لاثنتين من المفكرين الصينيين الكونفوشيين، والتى يدافع فيها الأول عن الطبيعة الخيرة للإنسان وأن الخير متأصل فيها، بينما يبنى الآخر مفهوم أن الشر هو أصل الطبيعة الإنسانية، عقب توينبى بقوله إنه يعتقد أن الطبيعة البشرية ليست فى الأصل خيرا أو شرا كاملا، بل إن كلا من الخير والشر كامن فيها، وإن كانت نسبة كلا منهما قد تختلف من إنسان لآخر، إلا أنه لم يكن هناك أبدا كائن بشرى يمتلكه الخير أو الشر

بشكل مطلق، ويعتبر توينبى أن هذا المزيج من الخير والشر فى الطبيعة البشرية هو نتيجة للعلاقة بين الكائن الحى والكون، فالكائن الحى هو جزئيا منفصل عن بقية العالم، ولكنه جزئيا أيضا متصل به، وقد يحاول الكائن الحى أن يسيطر على بقية الكون واستغلاله بمعنى أن يجعل من نفسه مركز الكون كله ومبرر وجوده ، وطالما أتبع الكائن البشرى هذه الرغبة الجشعة فإن سلوكه سيكون شريرا، ولكن الإنسان قد يختار البديل الآخر ويكرس نفسه للعالم ولخدمة مصالحه وليس من مصلحته الخاصة، وإلى الحد الذى يتبع فيه الإنسان هذا الخيار ، فإن الكون سيكون خيرا. فخبرة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين تكشف عن صراع مستمر بين هذه الدوافع فى كل كائن بشرى، ويبدأ هذا الصراع مع بزوغ الوعى لدى الإنسان وينتهى فقط بعجزه أو موته.

وهكذا يرى توينبى أن الميل الطبيعى للإنسان هو أن يحاول السيطرة على بقية الكون واستغلاله، ولكن كبديل آخر، فإنه يستطيع أن يكرس نفسه لأشياء وأناس آخرين، ولكن هذه التغييرية على نقيض الأتانية، لا تتحقق إلا من خلال ممارسة الإنسان للثورة على ذاته وفى تحكمه فيها والتزامه نظاما من إنكار الذات والتضحية بها إذا تطلبت الضرورة ، وربما كان من المستحيل إخماد الرغبة فى الإنسان كلية إلا فى حالة إفناء الذات ، كما أنه من بين الصعوبة جدا توجيه رغبة الإنسان بطريقة تقوم كلية على الحب، وحتى الآن فإن قلة ضئيلة من الكائنات البشرية هى التى حاولت إما أن تخمد رغبتها كلية أو أن تكرس نفسها كلية للحب، وهذا ما يفسر كون المجتمع البشرى حتى الآن غير أخلاقى بشكل مأساوى وغير ناجح اجتماعيا خاصة إذا حكمت عليه بمعايير ومستويات السلوك التى يمثلها الضمير.

ويعتقد توينبى أن المستوى المتوسط للسلوك الأخلاقى لم يتحسن، وليس ثمة دليل على أن ما يسمى بالمجتمعات المتحضرة هى أعلى أخلاقيا مما يسمى بالمجتمعات البدائية والتقدم الذى نسميه المدنية ليس إلا تقدما فى العلم والتكنولوجيا بالقوة، وليس تحسنا فى الأخلاقيات، فكل تقدم فى التكنولوجيا يحقق زيادة فى القوة التى يمكن أن تستخدم إما فى سبيل الخير أو الشر، وأكثر ما يزيد المخاوف والحذر فى المجتمع المعاصر أن القوة التى منحها التكنولوجيا للبشر قد زادت بشكل غير مسبوق بينما ظل المستوى الأخلاقى لمن يمتلكون هذه القوة من البشر فى مكانه وربما تدهر فعلا.

ويستخلص توينبي من كل هذا أن بقاء البشرية اليوم محفوظ بالمخاطر أكثر مما كان عليه فى أى وقت منذ أقامت البشرية تفوقها وسيطرتها على الطبيعة وأسماحت استخدام هذا التفوق بمدد بالأهداف الشيطانية للأثنية البشرية وهو ما يمثل خطورة أكثر من الزلازل، وتجر للبراكين والعواصف والفيضانات والفيروسات.

غير أن توينبي يعتبر أن القوة التى أنتجها العلم وتطبيقاته فى التكنولوجيا وزادت من قوة البشر على بعضهم البعض وعلى الطبيعة غير البشرية، هذه القوة هى عنصر محايد أخلاقيا، ذلك أنه يمكن استخدامها سواء فى الخير أو الشر على السواء، أو تزيد للحجم للمادى الأكثر الطيب أو الشرير للأفعال، فالطاقة الذرية التى تستخدم من أجل الشر تستطيع أن تقتل الملايين من الناس فى لحظة، وعلى العكس من ذلك فإن القوة التى منحها تقدم علم للطب للأطباء يمكن أن تنقذ ملايين الأرواح التى تسقط ضحية البكتريا أو الفيروسات. وهكذا، فإن تأثير القوة التى تولدها تكنولوجيا العلم على الحياة البشرية تعتمد على المستوى الأخلاقى لمن يسيطر على هذه القوة.

وفى حوار مع الكاتب : G.R. Urban حرص توينبي على أن يوضح موقفه من الحضارة الغربية المعاصرة وتحليله لها؛ اتصالا بالنقد الذى وجه له خاصة خلال الحرب العالمية الثانية حين شكك فى قدرة الغرب على هزيمة هتلر. وقد أوضح توينبي موقفه ورؤيته أنه فى عام ١٩٤٠ لم يكن يرى بوضوح كيف يمكن للغرب أن يخرج منتصراً فى صراعه مع هتلر والنازية، ولكنه افترض - مثلما فعل غيره - ضرورة استمرار الغرب فى القتال، أما بعد معركة بيرل هاربور فقد بدأ يتأكد أن الغرب سوف ينتصر، وعلى هذا يفرق توينبي بين عدم وضوح إمكانية هزيمة هتلر فى البداية، وبين تمنى النجاح له كما اتهمه نقاده، إذ فى الواقع أنه، شأن أى إنسان غربي آخر، تمنى من صميم قلبه الهزيمة لهتلر.

واصل توينبي توضيح موقفه بقوله إنه إنسان غربي وله مصلحة فى مستقبل الغرب، وأنه يقدّر الحضارة الغربية وأنه لا يود أن يراها تموت، غير أنه من ناحية أخرى، فإنه كان دائما معاديا للإمبريالية ومؤيدا لضحايا الظلم وأنه تمنى دائما أن يرى سيطرة الغرب على العالم تتخفف إلى المستوى الطبيعى للعلاقة،

وأن تنتهى المساواة بين الحضارات الأخرى فى العالم، ويضرب توينبى مثلا على تأييده حكومة العمال فى بريطانيا وتشجيعها على منح الاستقلال للهند وباكستان وسيلان عام ١٩٤٧، وكل هذا يختلف عن الادعاء بأنه كان يود للغرب أن يضمحل. وفى حواراه مع محدثه، ذكر توينبى بأنه كان دائم الحذر فى التنبؤ حول الحضارات القائمة لأننا ندرك أننا فى منتصف الرؤية وأنه حين يتأمل الماضى فإنه يستطيع أن يرى أنماطا من الحالات المنتظمة للتاريخ، ورغم اعترافه بأن هذه الأنماط والحالات هى موضع خلاف ولقاش، إلا أن هذا لا يعنى أن الإنسان يستطيع أن يحدد أنماطا جارية أو مستقبلية، فیتنبأ مثلا بأن الغرب سوف يسقط أولا يسقط أو أن تطور آخر سوف يحدث له أولا يحدث، فمن المستحيل التنبؤ بذلك لأن هناك دائما عنصرًا من عدم إمكان التنبؤ فضلا عن الإرادة الحرة فى الشؤون البشرية.

وردا على من وصفوا فلسفته للتاريخ بأنها رؤية عاطفية ومتحيزة، أوضح توينبى فى هذا الحوار أن أحدا لا يستطيع أن يدعى أنه غير متحيز. ذلك أننا جميعا ممثلون فى الدراما التى نشهدها، وربما أمكن للقائد البشرى فى دراسته للذرة أو الإلكترونيات أن يكون متفرجًا تماما - وحتى فى هذا فإن الأمر ليس أكيدا أما فى دراسته لسوك البشر فإنه لا يستطيع أن يقف موقف المتفرج. إنه يستطيع أن يكون متفرجًا ولكنه أيضًا مشاركًا، ذلك أننا جميعا نشترك فى المصير الإنسانى، ويعتقد توينبى أن المؤرخ فى هذا لا يستطيع أن يتهرب من ارتباطه الشخصى بهذا المصدر.

أما للحوار الثالث فهو الذى أجراه معه ابنه فيليب توينبى، فى هذا الحوار كان من أهم القضايا التى طرحت رؤية توينبى لأمريكا والأمريكيين وما لاحظته ابنه من أن مشاعره نحوهم مختلطة، فرغم أنه مفرم جدا بهم إلا أنه لا يشعر بالراحة تجاه بعض سياساتهم. ويؤمن توينبى على ذلك بعدة أسباب منها المعايير التى يحددون بها قيمهم، فإن تجعل حجم الاستهلاك هو معيار الحياة لهو شىء مقبوت حقا وتزيف أكيد للقيم الحقيقية، أما مرجع عدم ارتياح توينبى الآخر من الاتجاهات الأمريكية فهو قلقه حول ما يمكن أن يفعلوه تجاه القضايا البشرية، وكان

أكثر ما تخوف منه في هذا الشأن أنهم لم يختبروا في بلدهم حرباً حقيقية ولم يحدث هذا إلا في الحرب الأهلية في الجنوب إلا أن هذا كان منذ وقت بعيد وبشكل يبدو غير طبيعي، فليس هناك شخص ولد في أمريكا له خبرة مباشرة بالحرب في بلده، وبذلك فإن توينبي يشعر أنهم حين يتحدثون عما يمكن تحمله من الخسائر في حرب ما فإنهم لا يعرفون عما يتحدثون، كما عبر توينبي عن أئزعاله مما يلهمه من ولع الأمريكيين بالقتال، وتذكر زيارة له للبنجاب وكيف تملكه شعور بالعرب حين زار وزير الحرب الأمريكي في مكتبه، حيث وجد على كل الموائد والكراسي وفي كل مكان نماذج للصواريخ وكان الوزير يشعر بالسعادة لها مثل طفل يحيط نفسه بالعباءة.

وفي الحوار مع ابنه فيليب أجاب توينبي أيضاً على موقفه من إسرائيل ورفضه زيارتها أو أن يحاضر فيها، فقال إنه لا يشعر أن اللاجئين اليهود الذين جيء بهم إلى فلسطين مسئولون عما حدث، ولكن الزعماء للصهيونية هم المسئولون عن ذلك وكذلك الحكومات البريطانية والأمريكية، ذلك أنه حين بدأ هتلر عمليات الاضطهاد كان على الغرب أن يفتح أبوابه لكل اللاجئين اليهود منهم وغير اليهود، وهو ما لم يحدث على نطاق واسع وكاف، واعتقد توينبي أن إسرائيل هي حالة أخرى من حالات العدوان الغربي ضد الشرق، وقد يكون هذا موضع خلاف كبير، ولكنها بالتأكيد حالة سكان جاعوا من الغرب ليفتصبوا أرض الآخرين ويحتلوها بالقوة، كما كان الحال في روسيا والكنغو والجزائر.

وحين لاحظ ابنه أنه شخصياً ينظر إلى اليهود باعتبارهم غرقى يتعلقون بالمجداف، عقب توينبي: إنهم يتعلقون به ويدفعون أصحاب المجداف الشرعيين من فوقه، وهو ما فعله اليهود حين سرقوا من العرب أراضيهم وممتلكاتهم، وحين يسأل الابن أباه عما إذا كان ما يقوله هو تبسيطاً شديداً للقضية، وأن ما حدث هو تاريخ معقد من الوصاية، تبعها الجلاء الإنجليزي عن فلسطين والحرب التي بدأها العرب، يعقب توينبي بأن بلاده تتحمل مسؤولية ضخمة لأن البريطانيين لم يحزموا أمرهم فيما ستكون عليه سياستهم فقد كانت لهم السلطة المطلقة في فلسطين، وكان العرب عاجزين، ولم يكن في إمكان اليهود للهجرة إلى فلسطين دون رحيل البريطانيين

وفى اللحظة الأخيرة لم يقرروا ما إذا كانوا مسموحون لليهود بالاستمرار فى الهجرة إلى فلسطين، حتى يصبحوا هم الأغلبية ، أم يصروا على أن تظل الغالبية عربية، ويعتبر توينبى أن هذه السياسة البريطانية كانت تتطوى على قدر كبير من عدم المسئولية، وكانت أسوأ ما تعرض له الشعبان اليهودى والفلسطينى، كذلك يحمل توينبى الولايات المتحدة مسئولية كبيرة، فالأمريكيون يعرفون اليهود ولكنهم لم يسمعوا أبدا عن العرب، ولديهم شعور أن المواطنين الأصليين ليست لهم حقوق، وقد نظروا إلى العرب فى فلسطين نظرتهم إلى الهنود الحمر الأمريكيين.

## توينبى ونقاده

على الرغم من ثمة اتفاقا بين شراح توينبى ونقاده على أن دراسته عن التاريخ كانت عملا ضخما واستثنائيا على المستوى النوعى والكسبى لم يجرؤ أحد أن يقوم به من قبل، إلا أن فكره ومنهجه قد جعلته يبدو بمعانى عديدة غريبا فى القرن العشرين، وفى الوقت الذى اتجه فيه الباحثون فى فروع مختلفة إلى مجالات ضيقة من التخصص، لاختار توينبى أن يكتب تاريخاً عالمياً، وفى عصر النشر من الثقافى والفكرى تصور توينبى معنى شاملاً وراء حقائق التاريخ. وفى عصر يقيم المعرفة وفقاً لمستويات وضعها العلم، اتجه توينبى، إلى أن يستمد جذوره من الشعر والدين والأساطير. وفى عصر علمائى، رأى توينبى الدين باعتباره الهدف الرئيسى فى الحياة، والاهتمام الرئيسى للمؤرخ. وفى زمن من القلق الاجتماعى، والتشويش والاضطراب الأخلاقى، حث توينبى الإنسان أن يجد اليقين فى القيم الروحية والأخلاقية. مثل هذا الفكر وهذا المنهج كان لابد أن يثير ويعرض توينبى للنقد، والنقد العنيف الجارح فى بعض الأحيان.

فقد حدد الأستاذ Pitrim Sorkim فى دراسة له عن دراسة توينبى للتاريخ تحت عنوان : Toynbee Philosophy of History أربعة مآخذ ، أولها أن حجم الدراسة جاء ضخماً جداً وقد كان من الممكن إيجازه دون أن يفقد وضوحه أو اكتمال نظريته وأعتبر أن المسئول عن ذلك هو ولع توينبى بأن يقتطف بشكل واسع من الإنجيل، والأساطير، والشعر، وثائق هذه المآخذ هو ما أظهره توينبى من جهل أو إهمال متعمد لعدد من الأعمال الاجتماعية الهامة والتي تناولت الموضوعات التى لم يعالجها توينبى بشكل أعمق من تلك التى اعتمد توينبى عليها، فليس هناك ذكر لأسماء مثل تارد أو دوركايم أو ماكس وبرابرثيو. وقد كان من نتيجة هذا الإهمال أن كتب توينبى مئات الصفحات حول للقضايا، درست فى مثل هذه الأعمال بشكل أكثر شمولاً وفضل مما فعل توينبى، فمثلاً كان حديثه عن الخلاء Hybris أحد النقاط الجوهرية فى نظريته والتى كرس لها العديد من الصفحات، والقارئ الذى قرأ تارد، فضلاً عن العديد من الأبحاث التى ظهرت بعده، لا يحصل



من تحليل توينبى لأى شئ جديد. وبالمثل فقد خصص توينبى مئات الصفحات فى الأجزاء الأولى للبحث عن تأثير البيئة الجغرافية على المجتمعات البشرية والحضارات، ورغم هذا فإنه لم يصف أى جديد إلى المعرفة المتوفرة فى هذا الميدان. والمأخذ الثالث على دراسة التاريخ، فإن الأستاذ سوركين يراها فى أن معرفة توينبى بتاريخ الحضارات الست والعشرين التى تناولها جاءت غير متساوية بشكل كبير، فهى مختارة فى حقل الحضارة الهيلينية (اليونانية والرومانية)، وهى أقل بكثير فى حقل الحضارات الأخرى. ويبدو الثغرة الرابعة فى دراسة توينبى فى ضآلة معرفته حول ظواهر مثل القيم والفلسفة والعلم والقانون وغيرها مما تعرض له توينبى، كما تبدو الاستنتاجات التى يخرج بها عن هذه الظواهر مصطلعه تصدر عن شخص هاو، ونفس الشيء ينطبق على عدة ميادين يقدم فيها توينبى أحكاماً قاطعة.

أما المأخذ الخامس الذى يسجله سوركين على توينبى فهو فيما يصف به حضاراته من صفات واتجاهات يعتبر أنها غلبت وميزت هذه الحضارات مثلاً فى هذا بسنجلر، فالحضارة الهيلينية عند توينبى يسيطر عليها الاتجاهات الجمالية، والاتجاه الدينى على الحضارة الهندية، والتكنولوجى على الحضارة الغربية، (وإن كان لم يصف باقى الحضارات ويضعها وفقاً لهذه الاتجاهات) ولا يعتقد الأستاذ سوركين أن فى اتجاه توينبى هذا. فالحضارة الغربية لم تظهر طابعها الرئيسى الذى وصفها به توينبى حتى القرن الثالث عشر بعد الميلاد، فمنذ القرن السادس حتى القرن الثانى عشر، كانت حركة الاختراعات العلمية والاكتشافات فى مستوى الصفر فى مثل هذه الحضارة، ومنذ القرن السادس حتى القرن الثالث عشر كانت هذه الحضارة دينية وربما دينية بشكل أكثر من الحضارة الهندوسية فى كثير من مراحل تاريخها، كذلك فإن الطابع الجمالى الذى يدعيه توينبى للحضارة الهيلينية لم يظهر قبل القرن السادس قبل الميلاد، كما أبدت هذه الحضارة طاقة علمية وتكنولوجية فى الفترة من ٦٠٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد، من ناحية أخرى فإن الحضارة العربية (التي لم يركز توينبى على طابع مميز لها) قد أظهرت طاقة ضخمة على الاتجاه العلمى والتكنولوجى فى القرن ما بين ٨ - ١٣ وبأكثر مما أبدته الحضارة الغربية خلال هذه القرون، وعلى هذا يخلص الأستاذ سوركين أن

اتجاه توينبى إلى إلحاق اتجاه غالب ومحدد لهذه الحضارة أو تلك هو شيء غير دقيق بل ومضلل.

ورغم هذه المآخذ والأخطاء التى يرصدها الأستاذ سوركين على "دراسة التاريخ"، إلا أنه قد اعتبر أنه فى عمل يمثل هذه الضخامة فإن، مثل هذا الأمر، يبدو شيئا لا مفر منه ولا يجب أن يعيب العمل ككل خاصة إذا كان أساسه الذهنى متينا، فإن مثل هذه المآخذ يجب أن لا ينظر إليها بأكثر من أنها لم يكن لها لزوم وتزيد عن حاجة العمل.

أما الأستاذ هانز مورجانتو Hans Morgenthau فقد خصص دراسة عنوانها: Tognbee and the Historical بدأها بما أورده أحد فلاسفة التاريخ، من أن هدف التاريخ هو أن لا يجعلنا حكماء ليوم واحد فقط، وإنما إلى الأبد، فالتاريخ يفصح عن حكمته بما يقدمه من روايات ذات معنى لحياة وأعمال من جاءوا قبلنا من الرجال. وهذه الرواية تستمد معناها من الرابطة التى يقيمها بفكر الانتقائى والتقييمى للمؤرخ بين المادة التاريخية وبين اهتمامات الإنسان الدائمة. بهذا المعنى يعتبر مورجانتو أن توينبى قد أيقظ بعشق للخيال التاريخى من سباته العقيدى المتمزمت، فلم يكن هدف توينبى أن يقدم رواية متماسكة للعملية التاريخية، وإنما كان هدفه فلسفيا أكثر منه تاريخيا، وكان يبحث عن القوانين الحاسمة فى ظهور وسقوط الحضارات.

ويعتبر مورجانتو أنه رغم أن هدف توينبى كان فلسفيا إلا أنه أدرك أنه لا يستطيع أن يعتمد على الفلسفة فى بحثه عن مسئوليات للتقييم على المراحل البيولوجية فى العملية التاريخية للمضادات ذلك إنه اعتقد أن عصرنا قد أفقد الجراءة العقلية فى الاعتماد على الذات التى ما زالت تسمح لأمثال كومت وماركس ببناء نظم فلسفية تدعى أنها تشرح القوانين التى يتعذر وقائعها التاريخ، غير أنه بدلا من ذلك تحول توينبى إلى الدين، حيث ادعى أن الدين وحده، يمكن أن ينقذ الحضارة الغربية. وقد توافق لجوء توينبى إلى الدين مع نمو حركة شعبية - خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية - تتشد الإثقال للدين من شرور وأخطار العصر. غير أن الشعبية التى لقيتها نظرية توينبى فى اللجوء إلى الدين إنما تكشف ضعف ما

أنجزه. فتوينبى نفسه ليس لديه أوهام حول إمكان إحياء العقيدة الدينية المفقدة، وهو لا يدعو للعودة إلى عقيدة دينية، معينة بقدر ما يدعو إلى إحياء عقيدة دينية يمكن أن تتأكد من أية عقيدة من العقائد القائمة فى خليط من عناصرها. وهكذا فإن تفضيل توينبى للشخصى يبدو أنه نوع من الائتقاء الثقافى أو الجمالى الذى يتقبل بعقل مفتوح كل ما هو متجانس وملام فى الديانات التاريخية المختلفة.

غير أن مورجانتو لا يتفق كذلك مع تفضيل توينبى هذا إذ يعتبر أن التركيز على عقيدة دينية توفيقية يميل إلى طمس الفارق الحيوى لفهم المشكلة الدينية، والتى بدورها قد دعمت سوء الفهم الشعبى لما أراده توينبى. وقد نشأ سوء الفهم من الفارق بين الدين Religion والتدين أو روح التقوى Religiosity، واتصالاً بهذا المعنى الأخير، معنى التدين وروح التقوى، يؤيد مورجانتو أن معظم فشل العصر الحديث وعديد من إنجازاته ينبع من مصدر واحد وهو الاقتدار إلى التدين وروح التقوى عند الإنسان المعاصر، فالإنسان المعاصر - كما يرى نفسه - قد أصبح كيانه مكتفياً بذاته يعلم ما يراه ويستطيع أن يفعل ما يشاء، وهو فى هذا قد خسر الوعى بأنه يعتمد على إرثه وقد تعلق على فهمه وسيطرته. غير أن مورجانتو وإن كان يوافق على ذلك، إلا أنه ينبه إلى أن تحذير الإنسان الحديث ضد تمجيده غير الدينى لذاته والذى هو بمضى ما تشوبه لنفسه شيء، والدعوة إلى نوع من التوفيق والائتقاء الدينى شيء آخر تماماً.

ويتصور الأستاذ مورجانتو أنه إذا ما سألنا عما سيجعل حضارة ما تعيش مما سيمساعد الحضارة الغربية بوجه خاص على البقاء فإن توينبى سيجيب : عودوا إلى الدين بإحياء عقيدتكم الدينية. ويعتبر مورجانتو أن هذه الإجابة معرضة للشك، وهو شك ينشأ لا من التخمين الميتافيزيقى وإنما من خبرة التاريخ نفسه، فهل ثمة شهادة تاريخية تظهر أن العصور الدينية تحنكر أوتها حتى بوجه خاص فيما حضارية بالمفهوم الشائع والمشارك لهذه القيم . وهل ليس هناك على العكس شهادة تاريخية قوية تؤيد القول إن ضعف العقيدة الدينية تتوافق مع ازدهار الحضارات بالشكل والمعنى الشائع والمشارك المفهوم لها، وينتهى مورجانتو إلى القول إنه إذا ما أعطينا للحضارة معناها العلمانى الشائع والمشارك فسوف يكون من الصعب أن

نشكك أنه منذ أفلاطون إلى كانت، ومن سوفوكليس إلى دوستوفسكى. ومن مايكل أنجلو إلى رودين فإن إضعاف العقيدة الدينية وازدهار الحضارة لا يتوافقان فحسب فى الزمن ولكنهما يرتبطان بشكل عضوى كذلك. حقيقة أن الإنجازات العظيمة للحضارة تدين للخبرة الدينية ولكن ما هو أكثر من هذا أن إنجازات الحضارة المادية فيما يتعلق بالسيطرة العقلانية على الطبيعة والمجتمع إنما تدين بالكثير، وإن لم يكن بشكل شئ، للإنكار الحديث لكل من الدين والعقيدة الدينية وهو الإنكار الذى يفترض أن قدرات الإنسان لا حدود لها، وأن الإنسان قد أثبت فعلا ذلك ضمن الحدود التى اختارها بنفسه لإثبات ذلك.

وقد توقف بعض شراح توينبى عند الاهتمام الذى أبداه بالإسلام كدين وكحضارة، ولاحظوا أنه فى الوقت الذى لم يتحدث فيه بشكل محدد عن تأثير الهندوسية أو البوذية على المسيحية، فإنه قد خصص مقالاً خاصاً عن "الإسلام والغرب فى المستقبل" هذا الاهتمام من جانب توينبى بالإسلام هو الذى دفع بالأستاذ Eorth Hddueil لأن يخصص دراسة عن "مفهوم أرنولد توينبى لمستقبل الإسلام"، وتوضح هذه الدراسة مفهوم توينبى لهجوم الغرب على الإسلام على أنه جزء من عمل الغرب الضخم الذى يهدف إلى ضم كل للبشرية فى مجتمع ضخم واحد، وهذه المواجهة الحالية للغرب مع الإسلام، والتى بدأت منذ القرن الماضى، هى أكثر حدة فى نشاط من غيرها على المواجهات، وفيها يقف الإسلام فى وضع سيئ. ويرد توينبى ذلك إلى أن الغرب للمعاصر متفوق على الإسلام ليس فى السلاح فقط، وإنما فى أساليب الحياة الاقتصادية، وفوق كل شئ فى القوة الروحية التى تحقق وتحافظ على المظاهر الخارجية لما نسميه بالحضارة، ويوضح توينبى أن من يقف فى مثل هذا الموقف ليس أمامه - وفقاً لموايق تاريخية - غير بديلين للإستجابة لمثل هذا للتحدى: فالذى يتعرض لمثل هذا الهجوم إما أن يستجيب له بشكل متعصب أو الاستجابة الفعالة له، والشكل الأول من الاستجابة يلجأ إليه من يرفض الاعتراف بأى شئ جديد وينطوى على نفسه فى مواجهة المجهول، وهو فى هذا توجيهه الغريزة فقط. أما البديل الثانى فى الرد على الضغوط والاستجابة لتحدى الغرب فهو يمثل الاستجابة الفعالة والتى تعتمد فى مواجهة الذى يتعرض للهجوم

لمن يهاجمه على أرضه وبأساطيله وأسلحته، وهو فى هذا ينظر إلى الخطر فى عينيه مباشرة. وأول من اتبع البديل الثانى فى الإسلام كان محمد على باشا، وبينما لم ينجح السلطان العثمانى سليم الثالث فى إصلاحاته فإن تركيا الحديثة قد واجهت البديل الثانى بتماسك يدعو للإعجاب حيث أخذت سواء فى هيكل الدولة أو فى مجتمعها بالفكر الغربى. ومع هذا فإن توينبى يعبر عن شكه فى هذه التجربة وفعاليتها فى النهاية، ويتساءل هل الوصول إلى هذه الغاية ولتباع هذا البديل كان يستحق ما بذل من أجله من عذاب، وهل إقامة دولة أو أكثر على النموذج الغربى يشكل حقاً إثراء للحضارة، ويجب توينبى بالنفى على هذا للسؤال ذلك أن النجاح الذى تحقق بإقامة الجمهورية التركية قد أفاد الأقلية للصغيرة جداً فقط أما الأغلبية فليس لديها حتى الأمل فى أن تصبح عضواً ولو سلبياً فى الطبقة الحاكمة للحضارة المقلدة.

أما الصورة التى صاغها توينبى لليهودية واليهود فى "دراسة التاريخ"، فقد تعرض بسببها للنقد الحاد وخاصة من المؤرخين اليهود، إذ استخلصوا أن وجهات نظر توينبى فى هذا الشأن تحكمها مفاهيم أربعة لافئة للنظر :

- أن اليهودية هى خبرة من الحفريات.
- أن التعصب الأعمى هو فى جوهره اختراع يهودى قدم للمسيحية والإسلام، وقد تعرضت المسيحية للخيانة، وضللت نحو التعصب بالتطرف وعدم التسامح اليهودى.
- إن إنشاء إسرائيل هو بالمعايير اليهودية نفسها، عمل من أعمال العقوق unpiety وعودة خطيرة لأشياء عفا عليها الزمن حتى بالمستويات اليهودية نفسها.
- أن الصراع العربى الإسرائيلى، إنما هو كارثة كبرى". يفوق فيه السقوط اليهودى أخلاقها "الحضيض الأخلاقى للنازى".

غير أن أهم نقد لتوينبى وأكثره حدة فقد جاء من المؤرخ H. R. Trevor - Roper الذى ركز هجومه على توينبى باعتباره عدواً للتقاليد الليبرالية والعقلانية، واتهمه بأنه يدعو بل ورحب باضمحلال الغرب والحضارة

الغربية، واعتبر أن توينبى "هو أساسا عدوا لليبرالية والعقلانية، وكل شيء" يدعو لحرية العقل البشرى، والروح البشرية هو كربه وبغض بالنسبة له، وعنده أن عصر النهضة كان بداية الاضمحلال الذى لا رجعة فيه للغرب، وكل مظهر آخر للعقل البشرى هو حجر زاوية أخرى على الطريق إلى الحطام...". وذهب روبر إلى أن "تبوءات توينبى الكثبية" بأن الغرب فى حالة اضمحلال قد ساهمت فى روح الهزيمة التى واجهت بها البلدان الغربية هتتر فى الثلاثينيات. ونسب لتوينبى الشغف بأن يرى الغرب وقد تحطم ولهذا "فإنه حتى عام ١٩٣٩ كان غير مبالي وأغمض عينيه عن التهديد الصادر عن ألمانيا النازية" ولأن توينبى يتوق إلى الرومانسية، وهزيمة الغرب فإنه يبدو وكأنه "يتطلع بسرور وارتياح خبيث لفناء حضارتنا". وقد وجد روبر لدى توينبى استعدادا لأن يضحى بالمثل الغربية فى العدالة والحرية، والعقلانية، والفن والأدب الغربى، طالما بقيت المسيحية كجزء من دين يجمع كل الديانات : Cyncrctize Religion الغربية تسلك طريقا خاطئا، وهى لا تعنى شيئا بالنسبة له، ولا يجب أن نهتم بها...". ويرفض Pieter Geyl تأكيدات توينبى بأنه يؤمن بالأراء الحرة ويعتبر المستقبل هو سؤال مفتوح، وأصر جيل أن تأكيدات توينبى هذه ليس لها أساس مثل ادعائه المتكرر أن تقييماته تصدر عن دراسة تجريبية Empirical وباعتقاده أنه بالعودة إلى المسيحية يستطيع أن ينقذ الغرب، الأمر الذى هو علاج غير محتمل ، فى الوقت الذى يدين كل جهود الحضارة الغربية ويحكم عليها بالعقم، وهو فى الواقع حكم بالموت، وهو رغم نقده لسبنلجر، فإن نظام توينبى الفكرى والفلسفى تسوده حتمية مماثلة لحتمية سبنلجر .

هذا النقد خاصة من جانب روبر وجيل، وجد صدى عند نقاد أكثر حداثة ففي عام ١٩٦٨، أعلن Siolney Pollard " أن توينبى يعارض أساسا المذهب العقلى... وهو بشكل غريزى يعارض كل ما تدافع عنه الليبرالية، الحرية، والحق فى الاختلاف والتعدد، والفك فى السلطة، والاعتقاد فى قيم الحياة التى تأخذ بالأساليب العقلية، ومفاهيم أخلاقية تبررها شروط بشرية وليست أسطورية أو إلهية . وعلى العكس فإن توينبى يفضل للشعور والحنس على التحليل، وإله واحد على مجتمع متعدد، وطريق محدود مرسوم على المبادرة البشرية ، والمعجزة على الإصلاح التدريجى".

أما الجانب الآخر في منهج وتفكير توينبى الذى تعرض للنقد فهو مفهومه الدينى للتاريخ، وأخذ الإلهام من تشاؤم أوغسطين، وتصوف برجسون، فى ذلك اعتبر بعض نقاده أن توينبى أيا كانت نواياه - إنما يضعف الاحترام للعقل فى وقت يحتاج فيه العقل لكل مساعدة يستطيع المتقنون تقديمها، ذلك أنه إذا ما تأمل الأساس العقلانى للحضارة الغربية، فإنه من الأكثر احتمالا أن نشهد تكثيفاً للأساطير السياسية التى تقوى مشاعرنا للبدائية، وانتشاراً لأنماط سلوكية غير عقلانية أكثر مما سوف نشهد من إعادة ليقاظ القيم الروحية كما يريد توينبى.

كما اعتبر هذا الاتجاه الناقد لفكر توينبى الدينى أنه لا يقدم أساساً سليماً للتعامل مع أزمة الغرب الراهنة أو مع مشكلات العالم فى عصر العالمية الجديدة، فهل يمكن تحقيق تحول روحى فى وقت تصدعت فيه وجهة نظر الرجل الغربى الدينية للعالم وتقوضت المؤسسات الدينية، وحين أصبح وجود الله ذاته موضع شك؟ وحتى إذا كان، الدين مفيداً اجتماعياً، أو يخفف من القلق النفسى، فهل يستطيع المتقنون الغربيون ذلك فى مناخ عقلى يصيغه العلم والشك والعودة إلى عالم لم يعودوا يقبلونه كثنى وحقيقى؟... ويواصل هذا الرأى الناقد لاتجاه توينبى الدينى تحفظاته بأن الثورة الدينية التى ينشد توينبى من خلالها "تحول للروح بعيداً عن العالم، والجسد والشيطان إلى مملكة السماء" لا يمكن أن تتحقق من خلال الحب النبوى فقط، ذلك لأنه بدون طقوس الدين، والسلطة الدينية، يتلاشى الدين. والغرب الحديث لم يعد يتقبل سلطة الدين أو طقوسه، هذا فضلاً عن أنه فى عصر ما بعد المسيحية العلمى التى تهاوت فيه النظرة الدينية للعالم، وأظهرت فيه المسيحية قدرة ضئيلة على تحويل الغربيين إلى عقيدة أسلافهم فإن توينبى كان يأمل فى قدس معاصر مثل القديس فرانسيس لكى يقود الغربيين العاصين والمتمردين ويعود بهم إلى حب الله، وهو أمل إما يعبر عن روح التقوى والورع عند توينبى وليس عن الواقع. وقد اعتبر هؤلاء النقاد أن هذا الاتجاه عند توينبى يفسر لماذا كان توينبى فى أصاله الأخيرة مفتوناً بالديانات الشرقية، فالشرق باعتباره أقل أخذاً بالأساليب العلمية والصناعية ويميل تقليدياً إلى التأمل الباطنى، قد يكون أكثر تقبلاً للثورة الدينية من الغرب.

كذلك ينبه هؤلاء النقاد إلى الأثر العكسي لهذه النظرة الدينية، ذلك أن إعادة إيقاظ الدين يمكن أن لا تؤدي إلى إيقاظ القيم الروحية التي أرادها توينبي، وإنما إلى تكثيف العقيدة الأصولية، والتي يمكن أن يصاحبها سياسات اجتماعية رجعية ورغم النزعات القومية الضيقة، الأمر الذي سوف يعيق العقليّة والنظرة العالمية التي تصورها وأرادها توينبي، وأثاره للقومية التي كرهها، وإحباط التقدم الاجتماعي الذي دعا إليه.

ويخلص هذا الرأي إلى القول بأن التكامل المتزايد للعالم في العصر الحديث لم يأت نتيجة للديانات ولكن للتجارة والعلوم والتكنولوجيا، وأنه من المشكوك فيه أن إحياء الدين سوف يسرع بتقدم العقليّة والنظرة العالمية، أن الأصوليين الهنود، والمسلمين، والمسيحيين لديهم من العوامل المشتركة أقل من تلك التي تجمع بين العلماء والفنيين أيًا كانت قوميتهم. فالعلم يتحدث لغة العقل العالمي، ورغم أن الديانات السماوية تعتقد في مثل العالمية، إلا أن جذورها تكمن في الخبرة التاريخية المحددة لحضارة معينة، وهي بهذا الشكل يمكن أن تكون عائقًا للوحدة العالمية أكثر من أن تكون عونًا لها.

أما للمؤرخ ألبرت حوراني فقد علاج فكر ودراسة توينبي عن التاريخ من زاوية مقولاتها الأولى التي اعتقد أنها غامضة بشكل لا علاج له، فمن الصعب أن تجد في عمله تحديدًا واضحًا لما يعنيه بالحضارة، ومثل هذا الافتقار إلى التحديد يفسر شيئًا تحكميًا في قائمة توينبي عن الحضارات، فمن بين الحضارات الواحدة والعشرين التي حددها توينبي، لماذا يوجد فيها ثمانية على الأقل في الشرق الأقصى؟ ولماذا تتميز الحضارة البلغارية بين هذه الحضارات؟ في الوقت الذي لا تتميز فيه الحضارة البريطانية بين حضارات الغرب؟ ولماذا تنقسم الحضارة الموحدة الواضحة للعالم الإسلامي إلى ثلاث حضارات: السورية، العربية، والإيرانية؟ ولماذا ينظر إلى الحضارة العثمانية كحضارة مجهضة بينما تعامل إمبراطوريات أخرى كمظاهر لبعض الحضارات التي تمتد فيما بعدها زمنيًا؟

كما لاحظ الأستاذ حوراني أنه بعد أن أثبت توينبي أن الحضارات هي الكيانات النهائية للتاريخ البشري وأنهم جميعًا تعرضوا لنفس القوى وأنهم جميعًا



حتى الآن قد عانوا نفس المصير، فإنه مازال من الصواب أن نتساءل ما هي مكانة هذه "القوانين" ولماذا عاشت، فهل هي مجرد مصادفة أن تنشأ الحضارات، وأن ثمة شيء في طبيعة الإنسان يقود إلى ظهور وحدات يمثل هذا الحجم والنوع، وإلى الفصل بينها، وإلى ما نمر به كلٌّ منها من نمو وانهيار، ثم بالموت الذي حل بها حتى الآن؟ ويقرر حوراني أن نظرية في التاريخ لكي تقوم على أساس متين يجب أن تستند إلى نظرية عن الإنسان والكون، وفي الأجزاء الستة الأولى من دراسة توينبي فإن النظرية تقتصر إلى هذا الأساس رغم أنه ثمة إشكالات على ذلك، ثمة اعتقاد واضح في الحرية البشرية، ولأن عملية النمو والانهيار، والتفكك يمكن أن تتقطع عند أي نقطة. ولكن ليس هناك تفسير واضح لماذا - رغم الحرية - يحدث هذا التكرار في التاريخ، وإذا ما سأل المرء عن إيضاح لهذا الإقناع بين الـ Yan أو المسكون والـ Yen أو الحركة فإنه لا يحصل على إيضاح وإنما على وصف شعري.

ويتساءل حوراني عما يمكن قوله عن طبيعة ونوعية هذه الرؤية للتاريخ؟ ويخلص إلى أنها نتائج خيال غريب وقوى تسيطر عليه أفكار ما، تستطيع أن تستمع إلى الأصداء التي تتردد من عالم لآخر وحيث يشوه الصوت الأصل. ويجد حوراني أن من بين أكثر أجزاء دراسة توينبي إثارة للاهتمام هي تلك التي تتعامل مع عصر النهضة حيث تسيطر عليها ذكريات الحطام، وتبدي نوعاً من الألفة الروحية باقتباس من فولني Volney حول الشرق، وجيبون حول روما، وكما تتبدى في هذه الأجزاء بوضوح المشاهد التي رآها وهو يتجول على الأقدام في اليونان وهو مازال شاباً في الولاية والعشرين، وهو ما كان نقطة البداية في عملية التأمل الطويلة والتي نبع منها دراسته للتاريخ.

غير أن حوراني يدرك أنه وراء الأصداء والحطام تكمن رؤيا أخلاقية للتاريخ، فكل مفاهيم توينبي هي في النهاية مفاهيم أخلاقية وأحكاماً أخلاقية تنتشر في صفحاته، فثمة لفعال "لا يمكن غفرانها" ودوافع متشابهة سلخرة كما أن ثمة شخصيات تاريخية متهمه بالغباء الثقافي والفكري والانحراف الأخلاقي، ولا يرى حوراني في مثل هذه العبارات صدفة، إنها تعرب عن وجهة نظر توينبي الشاملة

للتاريخ، وما هو أكثر تحديداً، فإن دراسة توينبي تكور حول مفهوم الـ Hubris أو الخيلاء المنمرة للذات والتي تغرى الرجال في لحظة الانتصار والسلطة والقوة، فالأقليات الخلاقة، والمؤسسات التي صنعتها تسقط بسهولة في عبادة الذات، وهي إذ تفعل ذلك تخلق سبب فائها، ولكن إذا ما استطاعت مقاومة هذا الإغراء، أو حتى إذا ما سقطت فيه، فإنها تستطيع أن تعود إلى نفسها وتندم، وعندئذ يمكن أن تتجنب الغناء.

تلك هي رسالة دراسة توينبي للتاريخ كما تصورها حوراني، إلا أنها كذلك تثير أكثر الأسئلة إلحاحاً، فحتى لو تفادت حضارة ما طريق التحلل واللفناء، فأى طريق آخر يمكن أن تسلكه؟ وإذا ما حققت التناسق وتقرير الذات، فأى هدف إن كان ثمة هدف، تستطيع تحقيقه؟ هل يمكن أن يكون لها هدف فيما وراء ذاتها، وفي النهاية، هل يمكن أن يقال أكثر من أنها نشأت ونمت وماتت أو تفادت الموت؟ مثل هذه الأسئلة تكمن فقط تحت سطح الأجزاء الأولى من دراسة توينبي وبإشارات فقط حول الإجابة عليها. ومن وقت لآخر، ثمة إشارة إلى أن التاريخ البشري ككل له معنى، فالإنسان في ذاته له هدف، ولذلك يصبح معيار الحكم على الحضارات هو ما إذا كانت قد قربت الإنسان من هذا الهدف.

وإذا كان النقد وزملاء توينبي من المؤرخين قد تعرضوا للجوانب الأساسية والموضوعية في منهجه ودراسته للتاريخ ونظريته في الحضارات، فقد تعرضوا كذلك لجوانب شخصيته العامة. فقد اعتبر بعضهم، وبشكل خاص بول جونسون، أنه في الأمور الشخصية كان سلوك توينبي نميماً من التناقضات، فرغم أنه هاجم الجشع، وأدان مادية المدنية الحديثة، إلا أنه كان جشعاً بشكل مرضي في أمور المال، ورغم أنه نعى على البشر حب الذات، إلا أنه لن يتردد أبداً في اتباع أهدافه الخاصة بغض النظر تماماً عن أهداف ومصالح من يحيطون به. وفي الوقت الذي كان يبتهج بمرافقة العظماء والأقوياء من نوى النفوذ إلا أنه كان يشعر بالغربة بينهم. وقد كان خجولاً، وغالباً ما يبدو معترداً، ومع هذا فقد كان يجاهد لكي يذعن للناس له، وغالباً ما حقق ذلك. غير أن من أنكروا فيه هذه الجوانب ونقاط ضعفه اعتبروا أنها هي التي جعلته يبدو إنساناً، في الوقت الذي جعلته ذكركته القوية، وطاقته التي لا تكل عن للعمل أقرب إلى سوبر مان.

بعد هذا التقييم لفلسفة توينبى فى التاريخ، وبعد أن هدأت المناقشات والخلافات التى أحاطت بدراسته عند ظهورها واكتمالها، إلى أى حد يبدو ما أنجزه توينبى هاماً، وما مدى مساهمته فى الدراسة التاريخية، وكيف سيراه وقيمه مؤرخو المستقبل؟ بشكل يتفق مع شخصيته، كان تقدير توينبى الشخصى لحياته متواضعاً، فحين سئل عام ١٩٦٥ كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب : .... مثل من حاول أن يرى الصورة فى مجموعها ... وليس من مجرد وجهة النظر الغربية، وبعد ذلك بسنوات أجاب على سؤال أحد الصحفيين :

".. أود أن أعتقد أنى قد فعلت عملاً مفيداً فى حق الشعوب الغربية وأن يفكروا فى العالم ككل"، وبعبارة أكثر دقة ذكر لمراسل آخر "كانت رغبى دائماً أن أرى الجانب الآخر من القمر مضيقاً أنه تعلم منذ طفولته أن يتسائل عن الشعوب التى تركت خارج التاريخ التقليدى مثل : الفرس، والقرطاجيين، والمسلمين وما شابههم. مثل هذا الاهتمام، وتوسيع نطاق - التعاطف والمعرفة فيما وراء الحدود التى رسمها مؤرخون آخرون، كان من الإسهامات الرئيسية المؤكدة التى قدمها توينبى لدراسة التاريخ. ولم يكن ذلك فى الواقع بالمساهمة الضئيلة، ذلك أنه قبل توينبى، وقبل أن يوسع من منظورنا للتاريخ، كان للتاريخ كما يدرس فى الجامعات والمدارس الغربية لا يتعامل إلا مع الأوروبيين القدماء والعصور الوسطى والحديثة ومن الحدروا منهم ومن سلاطهم فيما وراء البحار، ولم تدخل شعوباً أخرى إلى المسرح إلا عندما اكتشفت أو تمكنت أو غزاها الأوروبيين. وكان كل شخص يعلم أن الهند، والصين والإسلام كان لهما تاريخ طويل، ولكن هذه كانت ميادين خاصة فى البحث لا ينظر إليها المؤرخون وإنما كانت تترك لعلماء اللغات ودارسى الأدب المقارنة. حقيقة أن ثمة عقولاً شجاعة قبل توينبى قد حاولت أن تربط بين التاريخ الأوروبى وغير الأوروبى، من أمثال هؤلاء هـ.ج. ويلز، ولكن كتابه: Outline of History الذى نشر عام ١٩٢٠، قد كتبه فى أقل من عامين، وكما ذكر ويلز نفسه فإن معظم معلوماته قد استمدتها من دائرة المعارف البريطانية، وزيادة على ذلك، فقد كان التاريخ الذى قدمه ويلز هو تاريخ التقدم، وكما نشأ فى معظم أجزائه فى أوروبا ولم تلعب فيه للشعوب الأخرى إلا دوراً هامشياً وفى القرون التى سبقت عام ١٥٠٠، الأمر الذى كان تشويهاً ضخماً. ولذلك فإن جهود ويلز لإصلاح أخطاء التقاليد الأكاديمية فى الدراسة التاريخية لم تفعل الكثير فى تعدى الحدود القديمة. كذلك كان المفكر الألماني سينجلر الذى جاء أيضاً مثل ويلز من خارج

المؤسسة الأكاديمية، أكثر علما من ويلز، وكانت رؤيته للمدنيات والحضارات غير الأوروبية هي التي قدمت لتوينبي مفتاحاً أساسياً في بناء دراسته للتاريخ، كما أن سينجلر قد عامل الحضارة العربية وبعض المدنيات غير الأوروبية كحضارات متساوية، الأمر الذي فشل فيه ويلز، كما كان سينجلر هو الذي أحيا تقليدا للقرن التاسع عشر ونظر إلى حكماء الصين وغيرهم من حكماء الشرق كأقران وربما متفوقين على أقرانهم الأوروبيين. غير أن ما يميز توينبي عن هذه المحاولات هو أن علمه كان أغزر وأكثر استيعاباً، كما أن ولعه بالتفاصيل أضىء بالمقارنات المدهشة عبر الزمان والمكان، ولذلك كان توينبي، أكثر من أى مؤرخ آخر، قادراً على أن يدخل فى وعى قسم كبير من قراء العالم، الحقيقة البسيطة أن الآسيويين والأفريقيين، وهنود أمريكا الحمر Amerindians وحتى شعوب خاصة من الإسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الأوروبيين. ولذلك كانت رؤية التاريخ البشرى من منظور أوسع من وجهة النظر الغربية هي مساهمته الكبرى الرئيسية فى تقاليد المعرفة، وما يؤكد حقه الدائم فى الشهرة والسمعة العالمية. ١٠

ويعتقد من أدركوا مساهمة توينبي أنها قد ازدادت قيمة خاصة بعد أن اتجه معظم المؤرخين بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن ظهرت بعض جوانب القصور التي لا تنكر فى الإطار الذى وضعه توينبي لتطور الحضارات صعوداً وهبوطاً، اتجهوا لأن يرفضوا رؤية توينبي ككل وكذلك تفاصيل تفسيراته، وبدلاً من أن يحلوا لإيجاد إطار أكثر ملاءمة ودقة للتاريخ البشرى فى مجموعة، اتجه معظمهم فى الاتجاه العكسى بأن طوروا بشكل متزايد بحثاً متخصصاً وغامضة عن هذا للتاريخ، وكان من النتائج أن يحدث هذا فى عصر يكتسب للتداخل والتفاعل بين أجزاء البشرية المختلفة أهمية أكثر وأكثر كل عام، وبشكل يصبح فيه إنكار الطابع العالمى للتاريخ فى النواتج الأكاديمية اتجاهها سخيفاً، فما يريد قراء المستقبل أن يعلموه، إذ ما كانوا سوف يبحرون بذكاء فى عالمهم، هو كيف تعاملت وتفاعلت الشعوب والحضارات فى زمن مضى.

وأخيراً كيف سينظر مؤرخو المستقبل إلى توينبي، وهل ستزداد أو يتناقص الاهتمام حول دراسته عن التاريخ وأهميتها ؟

// يعتبر أحدث شراح توينبي William McNeill أن عمل توينبي سيظل دائماً تعبيراً عميقاً عن العذاب والقلق الذى حل بالغرب فى القرن العشرين، وسوف يثنى

مؤرخو المستقبل على توينبى لنفاذ بصيرته ونظراته المضبوطة، وثرأ المعلومات التي قدمها، كما سوف يظل فى رصيد توينبى محاولته تقديم تاريخ للعالم كله، وتأكيد، قيمة كل للحضارات العالمية، ورفضه لفكرة الغرب فى التركيز على ذاته واعتباره أنه أسمى من غيره من الأجناس.

غير أن الاعتراف بإسهام توينبى هذا سوف يعتمد فى نظر شراح آخرين على ما سيفعله المؤرخون وغيرهم من المتقنين فى المستقبل بتاريخ العالم، وعما إذا كانوا سوف ينظرون إلى التاريخ البشرى المتعدد الوجوه، كما فعل توينبى ككل فى مجموعه، فإذا ما فعلوا هذا، وأكثر منه إذا ما أصبح كوكبنا متحدا، فسوف يذكر توينبى كرائد للوحدة العالمية، وكما عبر هانز كون Hans Khon فسيكون فضل توينبى الدائم هو تأكيد على جوهر الوحدة البشرية.

كذلك سوف يستحق توينبى الثناء على جرأته وامتداد أفقه، وإلقائه نظرة بانورامية على التاريخ فى عصر تردد فيه للمؤرخون فى أن يغامروا خارج نطاق فروع تخصصهم، وكما عبر William Mcneill فإن دراسة توينبى للتاريخ قدمت نظرات نافذة لإلقائه نظرات واسعة على الماضى، الأمر الذى لم يكن يتحقق بمجرد تجميع أجزاء منفصلة من التاريخ، ولم تكن بذلك تقدم إلا مجرد صفحات من هذا التاريخ، ولكن توينبى بخياله التركيبى Synthetic imagination واستبصاره لعلاقات جديدة، جعل منه مؤرخاً عظيماً حقاً، وسيفرض على المؤرخين أن يقدموا تصوراً شاملاً للتاريخ يحاول أن يستخرج معنى من العناصر التى تشكل التاريخ البشرى بشكل عام وللتاريخ الغربى بوجه خاص.

وربما كانت القيمة الرئيسية التى ستذكر لجهد توينبى هو أنه أجبرنا على إعادة تقييم طبيعة المعنى الأساسى لتقاليد عصر التنوير، وتنبهه إلى الأهمية والقوة الدائمة للجانب غير العقلانى فى الشئون البشرية. فقد ذكر توينبى الفكر الغربى بوجه خاص، إن العقل النظرى ليس هو المكون الوحيد للحضارة الغربية، فهناك المكون الدينى. بالنسبة لسقراط (العقل اليونانى). فإن معرفة الإنسان لنفسه تعنى أن عقل الإنسان وإرادته شيء مستقل بذاته، وأن العقل البشرى لا يعتمد على قوى خارج ذاته للدفاع عن القيم وتوجيه سلوكه. أما الدين فهو يمثل وجهة نظر بديلة للعالم، فهو يعلم أن الإنسان لا يستطيع من خلال العقل فقط أن يصل إلى مستويات أخلاقية ولا يستطيع أن يعرف نفسه بشكل كامل، وأن سبب الرذيلة، والمعاناة،

والحزن، هو انفصال الإنسان عن الله ، وأن علاج البشرية المتوعدة هو التوحد والاتصال مع الله، وقد حذر توينبى بنى جنسه الغربيين أن اعتبار ذلك جهل وخرافة يعنى أن تسيء بشكل كامل فهم القوة الصلبة للجانب غير العقلانى فى الحياة البشرية، وذكرهم بأن الطبيعة البشرية سوف تقاوم إقامة الحياة كلية على أساس عقلى، وهى لن ترفض أى تفسير قائم على الأسطورة أو تجعل من المعرفة الموضوعية أساس كل عقيدة، وتوقع غير ذلك يعنى إساءة قراءة للتاريخ والمبالغة فى تبسيط الوجود البشرى.

ويحثنا توينبى على أن نسأل إلى أين يأخذنا العلم، ويحذر مجتمعه الغربى من أن تكنولوجياه هى مثلما عبر Jacques Ellat تمثل عقلانية مفترسة، فالإنسان الفلأوستى فى تصميمه على البحث عن الحقيقة وإخضاع الطبيعة قد صاغ عالما مصطنعا من أجل حاجات متخيلة، وصنع تكنولوجيا تدمر من صنعها، ويبروقراطية تستطيع تجريبه من شخصيته، وتدمر الكرة الأرضية. وشأن رومانسى القرن التاسع عشر، انتقد توينبى الفنين لتحويل الإنسان إلى آلة لا روح لها، والطبيعة للأنشطة بالحياة إلى أدوات لا حياة فيها . ومثله مثل المناصرين للديانات الشرقية، اتهم توينبى الغربيين واتجاههم نحو الطبيعة والنظر إليها كشئ أعطاه الله للإنسان لكى يستغله، وبهذه النظرة نهبوا الطبيعة ولوثوها، وقد كان أبلغ ما أوصى به توينبى الإنسان الغربى الذى سيطرت عليه المادية إن الإنسان يستطيع أن يضمن حياة راقية إذا ما كبج جماح جشعه وطمعه واحترم الحياة والطبيعة.

وقد طالبنا توينبى أن نجد معنى فيما يعتبره الكثيرون عالما بلا معنى، وحذرنا من أن العلم وحده لا يستطيع أن يقدم لنا هذا المعنى. ولا يستطيع أن يستوعب الحياة بأكملها، وحذرنا من أن الأساس الوحيد للحضارة ليس هو السيطرة على الطبيعة ولكن سيطرته الأخلاقية على طبيعته الخاصة ونوعية علاقاته مع أقرانه من البشر. وقد أصر توينبى على أن أمراض المجتمع الحديث لا يمكن علاجها من خلال تغييرات فى منظماتها ومؤسساتها فقط، فالبشرية عنده تحتاج تغييرا فى القلب واتجاهها روحيا للفضل ، وبالنسبة لحضارة غربية متعثرة حذر بشكل أكثر من أن الحضارة تنهار من دخلها، ومن فشل القيادة فيها، والافتقار إلى الحماسة والحيوية، فإذا كان للبشرية أن تبقى فإنها يجب أن تبحث عن مكسب يلهمها ويقودها إلى الحياة السليمة المتكاملة أكثر من التركيز على المكاسب المادية.

وقد رأينا كيف أن جانباً من النقد العنيف الذي وجه إلى فلسفة توينبى وبالذات فى تحليله للحضارة الغربية المعاصرة ، هو ذلك الذى اتهمه بإشاعة اليأس وبالانهزامية، بل وجدنا من يتهمه بأنه يود أن يشهد إنهيار الحضارة الغربية، إلا أنه فى الواقع، وفى الوقت الذى لم تبهره إنجازات هذه الحضارة، ولم تصرفه عن جوانب الضعف فيها، نجده يعيب على من يستسلمون لليأس أمام هذه الثغرات التى تهدد الحضارة الغربية وأصر على "إننا يجب أن نناضل لكى نكسب معركة الحياة رغم أنه ليس لدينا ضمانات، إننا سوف نفعل ذلك". كما لم يكن خالياً من الأمل بالنسبة للحضارة الغربية فقد أكد على "إننا يجب أن لا نكون انهزاميين ، سلبيين فى رد فعلنا تجاه الشرور الراهنة التى تهدد بقاء البشرية، فإذا ما كانت هذه الشرور قد تسببت فيها قوى أبعد من الإرادة البشرية، فإن الاستسلام والرضوخ يجب أن لا يكون هو الطريق الوحيد المفتوح أمامنا. ومع هذا فإن شرورنا الحالية هى من صنع الإنسان ويجب أن يعالجها الإنسان" كذلك كان توينبى "مقتنعا بأنه من العار، وبما سوف يحط من معنوياتنا، أن نسمح بتكمير أنفسنا برفضنا أن نبذل جهداً هو من الواضح فى نطاق قدرتنا وأنه سوف يفتننا إذا كنا مستعدين وراغبين فى أن نبذل هذا الجهد".

غير أنه إذا كان مؤرخو المستقبل أو بعضهم سوف ينصفون توينبى ولن يروا فيه كما رأى بعض معاصريه عدواً للعقل والحرية، إلا أنهم لن يتجاهلوا أن توينبى قد أشاع الضباب حول الاتجاهات الجوهرية للحضارة الغربية وشكك فى نقائدها العقلية والليبرالية ، كما أبدى اهتماماً ضئيلاً، وفى بعض الأحيان استخفافاً بإنجازات الغرب وما تعتبزه الحضارة الغربية مساهماتها الرئيسية مثل دراسة الطبيعة، والضمائمات القانونية للفرد، والحكومية البرلمانية، والتسامح الدينى ، والحرية الفكرية إلا أن توينبى لم ير اختلافاً فى هذا عما ادعته حضارات سابقة لم تنجح فى النهاية :

"حين أسأل زملائى الغربيين ما الذى يرمز إليه ويدافع عنه الغرب، ويأتينى الرد كما هو العادة دائماً بأنه يمثل العدالة ، والحرية الإنسانية، فأنى أسأل بدورى عما إذا كانت أى حضارة عرفها للتاريخ المكتوب لم تدافع أيضاً عن نفس الفضائل، وهى بالتأكيد الفضائل التى شعر كل البشر أنهم مكرهين على أن يعبروا عن ولائهم لها، إلا أن أياً منهم لم ينجح فى الوفاء بذلك".





## المصادر

اولا: من أعمال أرنولد توينبي:-

- "A study of history". the new one volume edition, thmes and Hudson, 1972
- "Experiences" oxford university press, 1969.
- "Surviving the future" oxford university press 1971.
- "Civilization on trail", oxford university press, 1948.
- "The world and the west", oxford university press, 1959.
- "An historian Approach to religion", oxford university press, 1956.
- "The Toymbee- IkeDa dialogue: man himself must choose.

ثانيا: أعمال عن أرنولد توينبي:-

- McNeill.william, "Arnold Toynbee; A life", oxford university press, 1989.
- Geyl, pieter, "Depates with historians" New york, Meridian books, 1958.
- Hourani, Albert "A vision of history, new eastern and other essays", khayates, beirut, 1961.
- Dawson, christopher, "Dynamics of word histroy" new york, sheed and word, 1956.
- Mantagu, M.F. Ashley, ed., "Toynbee and histORY porter sargent, 1956.:

راجع بوجه خالص فى هذا العمل :

- Pieter Geyl, "Toynbee's system of civilization".
- H. Mitchell "Herr spengler and Mr. Toynbee".
- Hens Morgenthau "Toynbee and the historical imagination".
- Winerrout , kemmeth,"Arnold Toynbee, the Ecumenical vision", twayne publicatims.
- Toynbee, philip. "Companing Notes, A dialogue berwee generation".
- Peper, chirstian, "An historian conscience. The correspondence of Arnold Toynbee and columBia cary-Elwes.. "Boston: Beacon, 1986.
- Perry, Marvin, "Arnold Toynbee and the crisis of the west" Lanhan, 1982.

## السفير الدكتور السيد أمين شلبي

أولاً :

- حصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً :

- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٦١.

- ساهم فى تأسيس معهد الدراسات الدبلوماسية عند إنشائه عام ١٩٦٦، وعمل فى إدارته حتى عام ١٩٦٩، ثم تلقى لمديره (١٩٨٦ - ١٩٨٨).

- وعمل فى سفارات مصر فى: براج. بلجراد . موسكو. لاجوس، ووزيراً مفوضاً فى سفارة مصر فى واشنطن (١٩٨٢ - ١٩٨٦)، ثم سفيراً لمصر فى النرويج (١٩٩٠ - ١٩٩٤). حاصل على وسام الاستحقاق النرويجى.

- عمل مديراً لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية (١٩٩٤ - ١٩٩٦).

- عضو المجلس الأعلى للثقافة (الجنة العلوم السياسية).

صدر له :

١ - التنظيم الدولى فى مفترق الطرق.

٢ - هنرى كيسنجر . حياته وفكره . الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦.

٣ - "From % com fromtation to peaceful coexistence" رسالة غير منشورة مقدمة إلى جامعة اكسفورد، ١٩٧٦.

٤ - الوفاق الأمريكى السوفيتى ١٩٦٣ - ١٩٧٦ (الهيئة العامة للكتاب)، ١٩٨٠.

٥ - قراءة جديدة للحرب الباردة. دار المعارف، ١٩٨٣.

٦ - الدبلوماسية المعاصرة. عالم الكتب، ١٩٨٩، طبعة ثانية، ١٩٩٨.

٧ - من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولى جديد (الهيئة العامة للكتاب)، ١٩٩٦.

٨ - العلاقات الأمريكية / المصرية ١٩٤٦ - ١٩٥٦ (مترجم)، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

٩ - ما بعد الحرب الباردة: قضايا وإشكاليات. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، ١٩٩٧.

١٠ - الصين وروسيا: من الخصومة إلى المشاركة الاستراتيجية. مركز الدراسات الآسيوية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة، ١٩٩٨.

١١ - جورج كينان: الدبلوماسية للمؤرخ. الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧.

١٢ - حوارات المستقبل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨.

١٣ - داج همرشولد: حياته وفكره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

- نشر العديد من الدراسات والمقالات في المجلات والدوريات المتخصصة في مصر والخارج.

كما شارك في ندوات ومؤتمرات مصرية وأجنبية، وحاضر في:  
معهد الدراسات الدبلوماسية، وأكاديمية ناصر العسكرية، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

## المفردات

٧	..... "كتاب عشته" بقلم د/ نعمات فواد
١٩	..... تقديم
٢٣	..... مداخل
٣٨	..... مصادر توينبي الفكرية
٤٨	..... معنى الحضارة ونظام الحضارات
٥٨	..... رؤية توينبي الدينية
٦٤	..... توينبي ومازق الحضارة الغربية
٨١	..... العالم والغرب
٩٠	..... حوارات
١١٠	..... توينبي ونقاده
١٢٧	..... المصادر





## هذا الكتاب

يرتبط اسم آرنولد توينبي، كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ، بتقديمه - من خلال عمله الضخم "دراسة للتاريخ" - نظرة رحيبة وبانورامية للتاريخ ومفهوما شاملاً يغطي الوجود البشرى منذ بداية الحضارات ومثل هذه النظرة الشاملة للتاريخ هي التي جعلته يتحدى تركز المؤرخين الغربيين حول تراثهم واعتبارهم أن الحضارة الغربية تقف موقفا متميزاً ومحتكراً في التاريخ، لذلك اعتبر مساهمة توينبي الأساسية في تقاليد المعرفة هي رؤيته للتاريخ البشرى من منظور أوسع وتذكيره لأبناء حضارته بمساهمات شعوب وحضارات أخرى في التاريخ البشرى.

وفصول هذا الكتاب هي نظرات في آرنولد توينبي : في مصارده ومكوناته الفكرية، والعيون التي رأى من خلالها حضارات العالم، في رؤيته لأهمية دراسة التاريخ والخبرة التي تقدمها ، وفي تتبعه للحضارات القديمة والمعاصرة وتصنيفه لها، وفيما يعنيه أساساً بالحضارة ومراحلها والقوانين التي تحكمها، وفي رؤيته الدينية كأساس لرؤيته التاريخية، وتحليله للحضارة الغربية المعاصرة ومآزقها، وفي تتبعه لعلاقة الغرب بالعالم وحضارته وثقافته الأخرى، ثم في تفكيره وتأمله في القضايا التي تواجه البشرية والإنسان المعاصر، وأخيراً في ألوان النقد التي وجهت إليه وإلى دراسته للتاريخ، وفي مكانته في التاريخ الثقافي وكيف سينظر وقيمه مؤرخو المستقبل.

أحمد غر

